
علي المقري
بلاد القائد
المتوسط

اهداء

إلى فرانك ميرمييه

فضّ المَرجوّ

-١-

بعد أحاديثها الطويلة معي في لقاءَيْن سابقَيْن، صار من الممكن أن أتفهّم جرأة ابنة الرئيس، في طلبها الزواج منّي.

اتّكأتُ على شبّاك غرفتي في بيت الضيافة، وفكّرتُ بسماح المريضة، زوجتي التي تركتُها وحيدة تصارع السرطان، ولبّيتُ دعوة غير عادية، إلى بلاد لم أتوقّع في أيّ يوم أنني سأزورها، أو أنني سأصبح مشاركاً في نشاط، يخدم رئيسها، حيث وجدتُني بعد أيّام من الدعوة في مطار القائد، المتّخذ من صفة الرئيس الشهيرة اسماً له، أقرأ لافتة مستطيلة على عمود كبير، تقول: مرحباً بكم في بلاد القائد. قلتُ لنفسي إنّ عزائي، في ما سأعمله، هو أنّني سأركل الفقر قريباً، وأصبح قادراً على توفير ثمن العلاج لسماح، لكنْ، مَنْ قطعتْ هواجسي لحظتها باتّصالها الهاتفي، وقالت إنّها الشيماء، ابنة القائد، بدت لي، حين صرتُ أمامها، وكأنّها تريدني أن أنسى أنّ لي زوجة.

لم يسبق لي أن سكنتُ، أو زرتُ، منزلاً بمثل ضخامة واتّساع بيت الضيافة، مع هذا لم تكن هواجسي واسعة فيه، لتجد لي خيارات عديدة، أعرف، من خلالها، الطريق الأنسب للمضيّ فيه. شعرتُ بالخجل وأنا أستقبل الشاعر محمّدين، قبل شهر وعشرة أيّام، في بيتي، أو ما يشبه البيت، ونسمّيه هكذا. لم يكن يوجد كنبات أو كراس، والفُرش غير نظيفة، حتّى الفَرْش الذي استلفناه من الجيران كان مليئاً بالأوساخ كأفرشتنا المبقّعة ببول أبناء أخت سماح الثلاثة، منذ أن جاؤوا وأُمّهم من القرية إلى القاهرة، وجلسوا عندنا لمدّة شهر. أخبرني محمّدين أنّ القائد معجب برواياتي، وأنّه يدعوني إلى أن أسافر إليه سرّاً لعملٍ ما قد يتطلّب المكوث إلى جواره عدّة أشهر. لم يتمهّل الزائر كثيراً وهو يراني قلقاً من قوله إنّها زيارة سرّيّة، وأوضح أن هناك مَنْ رشّحني للقائد للمشاركة في كتابة سيرته.

قابلتُ محمّدين في بيت الرّوائيّ إسماعيل النُّون ، فأصرّ على أن يأتي إلى منزلي، ليخبرني بأمر هامّ. يومها رحتُ إلى بيت الكاتب الكبير، لأحظى بنسخة من كتابه الجديد، إذ اعتاد أن يهدي نسخاً من أيّ عمل له للأدباء الذين يحضرون ندوته في بيته وسط القاهرة، صباح كل جمعة، ولا ينسى أولئك الذين يأتون، فقط، عقب أيّ إصدار له، ليحصلوا على نسخ منه مثلي. كان محمّدين يجلس بجوار النُّون، منتظِراً أن يُكمِل له كتابة الإهداء في الصفحة الأولى من الكتاب. بدا مندهشاً وهو يسمع اسمي في أثناء مصافحة الرّوائيّ العجوز لي. "الأستاذ محمّدين، شاعر من بلاد الثورة" قال النُّون، وهو يشير إليه. "أهلاً أستاذ علي. مفاجأة جميلة. أنا أبحث عنكَ".

وجدتُها فرصة لتجاوُز أحوالي المعيشية، ولأصبح قادراً على الكتابة في ظروف أفضل، بعد أن بقيتُ أظنّ أن كتابة رواية جيّدة كفيلة بتلبية احتياجاتي المالية، ليس من خلال النسبة المالية التي سأحصل عليها من بيع الناشر للنسخ، بل من خلال فوزي بجائزة شهرزاد للرواية العربية، والتي لا تبدو شديدة المحافظة في تقييد الكاتب بشروط أخلاقية وسياسية، مثل الجوائز الأخرى. لكن هذا لم يحصل حين رُشِّحتُ لها. فبعد أن صار من المؤكّد لدى الأوساط الأدبية أنني سأكون الفائز بالجائزة في دورتها الأخيرة، وصلني أنّ الناقد جهاد مَصْل هدّد بأنه سيستقيل من عضوية لجنة التحكيم لو منحوني الجائزة. صديقي الصحافي أحمد المَدَن نقل عن أخيه المبارك، الذي كان عضواً في اللجنة، أن مَصْل قال إنّه سيعمل فضيحة لإدارة الجائزة لو فازت روايتي، بإعلانه أنّها كرّمت رواية تشيد بالاستعمار. "هل الرواية هي فعلاً كذلك؟"، سألني المَدَن وكأنّه لم يقرأها. أنا أيضاً، حين عدتُ يومها إلى البيت، وجّهتُ لنفسي السؤال نفسه، وكأنّني لم أكتبها. لكنّ ما استعاده ذهني بعدها أعطاني إجابة، وإن كانت غير مقنعة: لقد رآني مَصْل في إحدى المرّات جالساً في مقهى زهرة البستان في القاهرة بجوار الناقد الهَيْج، الذي يعدّه عدوّه اللدود، حيث مرّ أمامنا، وجلس في الجانب الآخر دون أن يُحيِّينا. اكتفى بفَتْح عينَيْه على اتّساعهما،

وحدّق إليّ، بطريقة بدا معها وكأنّه التقط لي صورة للذكرى. لا أدري ما الذي جاء به حينها، ليراني مع هذا الناقد الذي يهاجم منهجه النّقديّ، ويصفه بالهجين. يا للمصادفة اللعينة! لقد بقيتُ أتهرّب من نقد الجائزة، في التصريحات والندوات الأدبية، لكي لا أُغضب إدارتها ومجلس أمنائها، آملاً بالفوز بها. ففي الأخير، نحن في واقع عربي، كما قلتُ لصديقي المَدَن، وأعرف كيف تؤثّر الانتقادات، ولو كانت صائبة، على قرارات منح الجائزة.

قابلتُ الشيماء، في المرّة الأولى، بعد ظهر اليوم الذي نشرتْ فيه صحيفة الثورة خبر وجودي في بلاد القائد. كان الأحمد زميلي في اللجنة المكلّفة بكتابة سيرة القائد، قد أخبرني أنّ مهمّتي سرّيّة، وحذّرني من الخروج من بيت الضيافة الذي نزلتُ فيه. استمعتُ جيّداً إلى كلامه، لكنني شعرتُ بعد أربعة أيّام من الوحدة أنني في ضيق، لا يمكن أن أتخفّف منه سوى بالخروج.

الشبابيك بدت، في الجناح الذي سكنتُهُ، وكأنّها تطلّ على حواجز كثيرة، حتّى الأشجار تشكّلت كحيطان، إذ حاولتُ أكثر من مرّة أن أتطلّع في نظري إلى أبعد من الفناء إلا أن كثافتها لم تتح لي ذلك؛ فهي طويلة بشكل لا أستطيع اكتشاف نهاية ارتفاعها من فتحات الشبابيك، وقد اكتست بطبقات غبار، غطّت مساحات الهواء المؤدّية لفروعها، فبدا أن من غير الممكن معرفة الزمن الذي مضت فيه وهي على هكذا حال، حيث لا مطر يغسلها، ولا سقاة يرفعون خراطيم المياه إلى أرفع من جذورها.

أردتُ أن أخرج لأتنفّس، أن أرى الشوارع والأسواق إلا أن الوقت كان مبكّراً، مع هذا استحسنتُ هذا الوقت الذي لا يخرج فيه الناس عادة. لمزيد من الاطمئنان، قلتُ لنفسي: لن يعرفني أحد. كما رجوتُ عبد السلام حارس بيت الضيافة أن لا يُخبر أحداً عن خروجي. لا أعرف كيف اطمأننتُ إليه، مع أنه ارتبك وهو يسمعني، ولم يستطع أن ينطق بجوابه الذي بقي محبوساً بين شَفَتَيْه.

أحسستُ بنوع من الارتياح وأنا أتطلّع إلى وجوه أطفال ونساء

فـي نوافـذ البـيوت، وأقـرأ يـافطات المحـلات التـي لـم تكـن قد فُتِحَت. كانت صور القائد ملصقة على الجدران بأشكال وأحجام مختلفة، بعضها ثُبِّتت في إطارات متوسّطة على أعمدة كهربائيّة، أمّا الأحجـام الكبـيرة منـها، فقد غـطّت واجـهات مبـان كبـيرة، وارتفعت عبر أعمدة في الساحات وعلى جانبَي الطُّرُق ووسطها، حـيث تظـهر الـصّور مـن أربعـة جـوانب فـي صـناديق زجاجيـة، بإطارات من الألمنيوم، بدت أشعّة الشمس الأولى غير قادرة على إخفـاء ضـوئها الكـهربائي. رأيـتُ بعـض العسـاكر في نقطة دوار مرورية قريبة من تمثال برونزي ضخم، لم أرَ ملامحه بوضوح. ربّما، كان للقائد وهو يرفع يده اليمنى عالياً تحيّة، أو مباركة منه، لشعبه.

كنتُ أتحاشـى المرور من جـوار النقاط العسكرية المنتشرة في الشوارع، إلا أنني لم أستطع أن أتحاشى مَنْ قال إنّه الصحافي ياسين العِكْش، وقد وقف أمامي بعد أن رآني وعرفني. ارتبكتُ حـين عـرّفني بنفسـه، فـرجوتُهُ أن لا يخبـر أحـداً بـوجودي. وإذ شعرتُ أنني تسرّعتُ بقولي هذا، أوضحتُ له أنّ زيارتي خاصّة، ولا يعرف بها أحد، لأنني لا أريد أن أُثقل على أصدقائي الأدباء باستضافتي إذا عرفوا بوجودي. "أكيد، جذبتْكَ الأخبار العظيمة إلى بلاد القائد" قال العِكْش وقد بدت رقبته المتينة لا تساعده على أن يدير رأسه بخفّة فوق جسمه القصير والعريض كمُربّع. "أكيد" هززتُ رأسي موافقاً. ولأن الصحافي كان يرغب بإكرامي، أو إكرام الأدباء لي، فإنه لم تمرّ سوى أربع وعشرين ساعة حتّى أصبحتُ أقرأ الخبر في الجريدة التي ناولني إيّاها حارس بيت الضـيافة وهـو يقـول إن الصـورة المنشـورة تشـبهني. اقتطعوها، ربّمـا، مـن إحـدى المجلات الصـادرة فـي بيروت، ليزيّنوا بها خبر وجـودي فـي بلاد القائـد. وهات يا كلام عن عشقي لهذه البلاد، والقـول إنّ مـن المـؤكّد قـد جـذبتْني شـخصية القائـد ومنجزاته العظيمـة لزيارتـها. لـم ينسـبوا لـي هـذا القـول، حيث صيغة من المؤكّد تبدو منسوبة لهم، من المؤكّد لهم. لكنني شعرتُ أنّ أي قـول يـربطني بهذا القائد سيُغيِّر سمعتي في الأوساط الأدبيّة، التي تناقلت أحاديث عن هذا القائد لا يمكن أن أتصوّر معها، أنّهم

سيستسيغون فكرة عملي عنده. لم أنسَ ما جئتُ من أجله، لكن ما جئتُ من أجله عمل سرّيّ، ولن يعرفه أحد في الوسط الأدبي والصحافي، غير أولئك الذين أعمل معهم.

قلقتُ من ردود فعل أعضاء اللجنة المكلّفة معي بكتابة سيرة القائد على ما نُشر عنّي حين التقيتُهم كالعادة في مكتب التوجيه الفكري. المُحِبّ، وهو مؤرّخ مختصّ بتاريخ القائد، لم يكتف، مثل نادية الرّسّامة والشاعرة، بإبداء انزعاجه من الخبر الصحافي، وزاد أنّبني على الخروج. أمّا الأحمد، كاتب روايات وقصص عن حياة القائد، فقد تجاوزهم في موقفه من خروجي، إذ بدوتُ أمامه وكأنّني لا شيء، أو لم أعد ذلك الرّوائيّ المتميِّز، حسب قوله في أوّل لقاء لي معه. بل إنّه تجرّأ وطلب منّي العودة حالاً إلى بيت الضيافة بطريقة استعلائية، لم أتوقّعها.

أُصبتُ بإحباط وأنا أستعيد تصرّفهم، باستثناء أبو اليُمن الذي بقي صامتاً، وكنتُ قد عرفتُ منهم أنّه كان زميل دراسة للقائد. خفتُ أن أفقد حلمي بتجاوز الفقر، أو رَكْله، كما صرتُ أقول لنفسي، وكادت الهواجس القلقة أن تطير بعقلي، لولا أن جرس التلفون رنّ لأوّل مرة منذ أن سكنتُ في بيت الضيافة، وكان على الطرف الآخر مَنْ قالت إنها الشيماء، ابنة القائد، وإنها سترسل سيّارة تقلّني إليها.

لم أجد سبباً، وأنا متّجه إليها، يبرِّر اندفاعي لتلبية دعوتها سريعاً؛ أنا الذي لم يسبقْ لي أن قابلتُ أحداً ينتمي إلى عائلة في السلطة. لكنْ، هل كنتُ سأرفض لو أنّ أحداً دعاني من قبل؟ هل كنتُ أقدر على ذلك؟ ألم أستجب لأوّل دعوة تصلني من رجل سلطة، أو رئيس بلد؟ ألم أكن سريع الاستجابة للدعوة التي نقلها إليّ الشاعر محمّدين، والذي عرفتُ منه أنّه وزير سابق ومستشار للقائد؟

رحّبتْ بي في البيت الكبير، كما أسماه سائق السيّارة، وأبدت إعجابها برواياتي. انزعجتْ من أن محمّدين ومكتب القائد لم يُبلغوها بوجودي. لم أفهم ما أهمّيّة أن يبلغوها إلا حين قالت إنّها هي مَن اقترحت اسمي، في اجتماع ضمّ أباها وبعض أفراد

العائلة ومحمّدين، لأكتب سيرة أدبية جديدة للقائد، بعد أن كُتبت وعُملت سيرته في عشرات، بل مئات، الكُتُب والأفلام واللوحات، بطريقة لم تُعجبها.

"عـرفتُ بـوجودكَ مـن الصـحيفة، فطلبـتُ مـن مكتـب القائـد أن يوصلوني بكَ" قالت، وقد بدا لي في قولها إنّها قادرة على أن تعرف مكان تواجدي أينما كان، وفي أيّ وقت، ما دام هذا المكان في حدود بلاد القائد، التي تشير أسماؤها كلّها إلى أبيها، كما يشير اسم أبيها إلى هذي البلاد.

-٢-

لم أتردّد عن الخروج مع أبو اليُمن حين جاء ليأخذني إلى بيته. شعرتُ أنّه ألطف أعضاء لجنة تأليف سيرة القائد. يستشهد دائماً، في أحاديثه، بأبيات من الشِّعْر، ويتواضع في نكران صفة الشاعر عنه، مع أنّه أهداني ثلاثة كُتُب شِعْرِيَّة من تأليفه. يُعرف بصفته زميل دراسة للقائد، لكنّه لا يحبّذ القول بأنه كان صديقاً له. "لم نكن أصدقاء" قال بعد أن خرجنا من بيت الضيافة. "هو لا يعرف الصداقة. لم يصادق أحداً" أضاف. "الصداقة حبّ للآخر، وهو لا يحبّ إلا نفسه" أوضح. قلتُ له إنّه الوحيد الشجاع الذي يتحدّث معي هكذا في هذه البلاد، فالتفت وهو يدير رأسه نافياً: "كلّ واحد يمتلك شجاعة، لكنْ، ليس كلّ شجاع يريد أن يموت قبل أن يطعم الحياة، يعرف ما هي". قال إنّه فضّل أن نمضي إلى بيته على الأقدام، لنتحدّث بحرّيّة في أثناء المشي. "كل الأماكن والسّيّارات فيها أجهزة تسجيل وتنصّت"، ورفع سبّابته اليمنى قبل أن يضيف "انتبهْ تصدّق ما يقال عن شمس الخلود الصّناعيّة أو نجمها في السماء". قلتُ له إن نادية سكرتيرة لجنة كتابة السيرة أخبرتْني عن هذه الشمس الصّناعيّة في الأرض ونجمها الصادر عنها في الأعلى: "اسمه النجم الكاشف. يومض ضوؤه في الليل. يكشف كلّ ما يعمله النّاس، كلّ شيء، حتّى إذا كنتَ في الحمّام أو في غرفة نومكَ مع زوجتك، يكشف الخبايا كلها، بما في ذلك خبايا النَّفْس، تفكير الشخص وأحلامه. له قدرة خارقة

فـي اكتشـاف الأشياء قبل حدوثها، وسماع حتّى دبيب النمل".
ابتسـم أبـو الـيُمن: "انتبـه، ناديـة مُخبـرة، لا يحتـاج القائـد لنجم يتجسّس على الناس، مادام يوجد مثلها".

كان بيت الضيافة غير مجهّز بحراسة مشدّدة، تُنفّذ التعليمات، لتمنعنـي مـن الخـروج، فعبـد السـلام الحـارس، مثلـه مثـل ابنتـه فاطمـة والطّبّاخـة نـازك والمُنَظِّفـة أُمّ أسـعد والسـائق شـاكر أبـو الحُسن، بدا لي أنّهم يتأقلمون سريعاً مع أيّ ضيف جديد يأتي إلى البيت. باستثناء زوجة عبد السلام التي لم أرها، فإن علاقتي بدأت تتوطّد معهم منذ الأيّام الأولى لمجيئي، وصار الاستماع إلى أحاديثـهم جزءاً مـن برنـامجي اليومي. مع هـذا بقيتُ أشعر بالوحدة، إذ لم أخرج أمشي لأرى الناس في الشوارع والأسواق. لم أكن قد خرجتُ سوى ثلاث مرّات، غير خروجي المعتاد لمكتب التوجيه الفكري، حيث تجتمع لجنة كتابة السيرة. مرّة خرجتُ بإرادتي، ومرَّتَيْن تلبية لدعوة الشيماء. في المرّة الثانية طلبت منّي أن أعطيها ملاحظات عن قصّة قصيرة كتبَتْها: امرأة تعيش في حرمان من متع الحياة، ولا تستطيع أن تثور على وضعها، أو تجـد مَنْ يتقـبَل المغـامرة معها، بسبب وحيد وهـو أنّ القائـد الموصوف بأكبر ثائر هو أبوها.

تلفّت أبو اليُمن كثيراً، وأنا أمشي معه في الطريق، قبل أن يهمس لـي ما قاله عن السكرتيرة نادية. لم ينسَ أن يقول، أيضاً، إنّها فنّانـة تشكيلية جيّدة، وشاعرة لا بأس بها. حذَّرني أن أتحدّث بسوء أمام عائلته عن القائد، "هم معجبون به، مغفّلون". قال إنّ زوجته هداية تفوق، في ولائها للقائد، أعضاء لجنة كتابة السيرة، لكنّني حين قابلتُها لم أشعر بهذا الحجم من الإعجاب، فقد كانت تشـيد، وهـي تقدّم الوجبات المتنوّعة، بما عمله القائد لأولادها ليس إلا، وكيف أنقذ ليلى، بنت الحارة اليتيمة، من الفقر، وعيّنها في مكتب أمينات السّرّ المختص بتقديم الخدمات الخاصّة للقائد. "جمالـها هـو الـذي عيّنـها، وأنقـذها" همس أبـو اليُمن بعد أن رأى زوجته تبتعد قليلاً منّا. كان قد كرّر القول إنّه لا يصدّق ما يقال عن النجم الكاشف لكل ما يعمله النّاس، لكنّه لم يستطع إخفاء

خوفه من أن يقول رأياً عن القائد أمام زوجته وأولاده، وإن كان الرأي ليس تماماً ضدّ مَنْ صار يخافه الجميع. قال إنه لا يأمن أحداً باستثناء القائد نفسه، ولم يوضح وهو يلتفت إليّ ليرى، بالتأكيد، استغراباً في وجهي. أمّا عائلته، فلا يأمن منها سوى ابنته فوزية. مع هذا، فالبنت التي بدت في الخامسة عشرة أطلعتني بتباهٍ واضح على صور لها وهي في زيّ يشير إلى أنّها مُرشدة في طلائع القائد. "الولدان المعتصم وإبراهيم يعملان في الخارج خدمة للقائد" قالت الأُمّ. وقد أوضح أبو اليُمن ونحن في طريق العودة أن "لا هَمّ ولا تفكير لهما سوى القائد. الأوّل يعمل في سفارة لندن، والثاني في باريس"، وتلفّت قبل أن يضيف: "هما ليسا سفيرَيْن، وإنّما من المخابرات، يعملان في جهاز أمن القائد. المعتصم أحرق ملهى في لندن، لأنّ صاحبه رفض منع عربياً من دخول الملهى كان قد شتم القائد فيه. القضية ما زالت في المحكمة مع أنّ القائد أرسل بتعويض لصاحب الملهى، ومكافأة للمعتصم"، أمّا إبراهيم، قال ضاحكاً، "فقد قرّب بين القائد وفنّانات وعارضات أزياء باريس لمصلحة الأمّة".

-٣-

حين أخذوني من مكتب التوجيه الفكري، فجأة، لمقابلة القائد، لم أكن ألبس أفضل ما عندي من الملابس التي أصرّت سماح أن نشتريها، قبل سفري، من محلات بيع الملابس المستخدمة. مع هذا فقد خضعت جيوب وأزرار وخيوط هذه الملابس إلى تفتيش دقيق جداً في أثناء دخولي من بوّابة القصر. كما أبقى المفتّشون ساعتي وخاتم زواجي وقلمَيْن ودفتر نوتة صغير في كيس نايلون لديهم، إلى أن أخرج من مقابلة القائد.

وجهه لا يشبه كثيراً ذلك الوجه، الحاوي لبعض الوسامة، الظاهر في التلفزيون والصحف، وفي الصور الموزّعة في الطُّرُق والشوارع التي عبرتُ فيها. بدا متجهّماً وسارح البال حتّى وهو يتكلّف بالقيام من مجلسه المرتفع ليصافحني ويقول جملة ترحيبية. غطّى اللون الأبيض زوايا الديوان كلها مع تزيين أطراف

متّكآته وبعض رقع سجاجيده بخطوط صفراء وخضراء وفضّيّة ذات أشكال تنسجم مع العباءة البيضاء التي يلبسها القائد، وتغطّي قميصاً وبنطلوناً أبيضَيْن، لتصل إلى منتصف الساقَيْن، حيث يرتفع حذاءان أبيضان بعنقَيْن شفّافَيْن، لهما كعبان طويلان، من زجاجَيْن لامعَيْن، في داخلهما شكلان بنّيّان، يبدو أحدهما كأفعى وآخر كجمجمة مغطّاة بشَعْر أشقر كثيف. التفاتتي إلى هذا البياض كله، الموزّع على جدران وأشياء ديوان القائد، بما في ذلك بعض قِطَع ملابس الحاضرين [كأنهم حاولوا من خلال اختيارهم لهذه الملابس أن يُرضوا القائد أو أن يُبرهنوا أنّهم جزء منه، لكنّهم بالمقابل ليسوا مثله، إذ ظلّت ملابسهم دون المقارنة التي بالتأكيد قد حرصوا على عدم طرحها، ولو كفكرة]، تركتني أنشده عن معاينة قُصره مِنْ طوله، ويمكن القول، خلافاً على ما يظهر عليه في التلفزيون، إنه ليس بالطويل، لكنني لا أستطيع، أيضاً، الجزم بأنّه قصير.

شعرتُ وأنا أجلس على بعد من يساره، أنّهم جاؤوا بي لأسمع، فقط. فباستثناء أربع كلمات، فقط، أشار فيها إليّ، وتضمّنت اسمي وترحيبه وإعجابه برواياتي، فإنّه قد راح يتحدّث عن كل شيء. هو لم يكن يتحدّث إليّ وحدي، إذ لم يلتفت في البداية إليّ، وظلّت نظراته مصوّبة إلى أعلى. ومن الأعلى وإلى الأعلى تحدّث عن منجزاته العظيمة في البلاد التي صارت تحمل صفته، صفة القائد التي بدت بمثابة اسمه. عرفتُ قبل سنوات طويلة، من خلال إنصاتي لأخبار بعض الإذاعات، أنّ عِرَاسوبيا تُعرَف بـ بلاد الثورة، ولم أعرف إلا حين وصلتُ إليها أنّهم صاروا يطلقون عليها صفة أو اسم بلاد القائد، أمّا عِرَاسوبيا، وهو الاسم الذي أُطلق عليها في اليوم الأوّل للثورة، من قبَل القائد نفسه، فلم أسمع أحد يردّده. بات من الواضح أنّه لم يعد متداولاً سوى في السجلات الرّسميّة بين البلدان.

شرح كيف حوّل بلاده، بين يوم وليلة، إلى أعظم بلد. "هُم لديهم كلّ شيء، أوجدوا كلّ شيء" قال، وفهمتُ أنّه يقصد الآخرين في بلدان العالم، "أمّا نحن ..."، وضع راحة يده اليمنى على صدره،

"فقد أوجدنا ما لا يستطيعون إيجاده. أوجدنا الإنسان. الإنسان الذي يستطيع أن يوجد كلّ شيء".

وفجأة وجّه نظرة خاطفة إليّ: "هل تصدِّق أنني كنتُ أخجل. هل تصدِّق؟" فارتبكتُ: "نعم، نعم، أصدِّق كل ما تقوله سيِّدي القائد". "أعرف أنكَ ستقول ذلك. صرتُ أعرف الأجوبة عن أسئلتي مسبَّقاً. لكنّكَ غير مصدِّق" قال. "لا، لا .." قلتُ. "نعم، كنتُ خجولاً في طفولتي وشبابي. لم أقل لفتاة في حياتي أحبّكِ. ليس لأنني لم أحبّ، بل لأنني لم أستطع قول هذه الكلمة من الخجل. النساء اللواتي عرفتهنّ في ما بعد رغبتُ بهنّ، رغبتُ بامتلاك أجسادهنّ. يمكنكَ أن تقول إنني أستلطفهنّ، لكني لم أحبّ واحدة منهنّ". وبدا وجهه معكّراً وكأنّه قال ما لا يريد أن يقوله.

في جواري جلس محمّدين، مَنْ جاء بي إلى هذي البلاد. همس لي في أثناء وصولي أنّه عرف بزعل الشيماء من عدم إبلاغه لها بوجودي. قال إنّه يعرف مشاغلها الكثيرة، ولم يكن يدري أنّها حريصة على رؤيتي. بجانبه جلس مَنْ عرفتُ، من همس محمّدين بعد خروجي، أنه طبيب القائد، ويُدعى الدكتور راشد. هناك شخصان آخران كانا يجلسان في الجانب المقابل، ولم يقدّموهما إليّ، أيضاً. أدركتُ أن ذلك لا يجوز في حضرة القائد، الذي عرفتُ من إشاراته، فقط، إليهما، في أثناء حديثه الطويل عن المنجزات العظيمة، أنّهما وزيران. وقد همسا لي باسمَيْهما حين نهضتُ للخروج، وصافحتُهما: أبو النُّبل، وعبد العاطي.

في بوّابة القصر، الذي بُني على شكل خيمة، ويحيطه، من بعد، مئات الحرّاس والسّيّارات المسلّحة، كان في استقبالي شخص أسمر ضخم الجثّة وطويل، يُدعى القاسم، يصفونه بحارس قصر الخيمة، وثلاث أمينات سرّ كما يصفونهنّ. تقدّمت إحداهنّ، لتقودني إلى ما أسمتْها صالة المجد، وقد بدت طيّبة كاسمها، إذ طالت في عبارتها التّرحيبيّة، دون أن تدرك بالتأكيد، الصفة المحصورة لمَنْ تنسب إليه البلاد، بلاد القائد، وقالت: "محسوبتك الطّيّبة، أهلاً بكَ في بلدكَ".

لم يحدّثني القائد عمّا جئتُ من أجله، إلى بلاده. شعرتُ براحة إذ اعتقدتُ أن مساهمتي في كتابة سيرته تُعدّ سرّاً حتّى على هؤلاء المقرّبين إليه، باستثناء محمّدين وأعضاء اللجنة وابنته، لكن حديثه لم يبتعد عن هدف مجيئي، فقد بقي أكثر من ثلاث ساعات يسرد بعض جوانب سيرته وإنجازاته في مَنْ كان قد أسماها عِراسوبيا العظمى، إلى جانب ما قدّمه للبشرية من فكر يُستهدى به لمعالجة أصعب المشاكل العالمية. ظلّ الحاضرون يهزّون رؤوسهم بإعجاب واندهاش لما يقوله، ولكنْ، دون صوت أو حركة، مع أنه لا يراهم، إذ بقيت نظراته مصوّبة إلى أعلى. هل كان لا يراهم؟ أم أن عينَيْه تصوّبان نظراتهما إلى أعلى، فتنعكس على القاعة فتراهم؟ هكذا تصوّرتُ، ولهذا بقيتُ أعمل مثلهم، أهزّ رأسي مندهشاً ومعجباً. هل خفتُ أن يراني من أعلى وأنا في حال سكون، لا أهزّ رأسي، فيحرمني من العمل والمكافأة. محمّدين بدا وهو يهزّ رأسه بحركة موافقة لما يسمعه، في الوقت الذي يحدّق فيه إليّ، كأنّه يريدني أن أعمل مثله. كان ذهني متذبذباً ما بين أن أُركّز على حديث القائد وبين أن أهتمّ بهزّ رأسي. ما بين لحظة وأخرى كنتُ أسرح بعيداً، أتذكّر سماح وأوجاعها، أتذكّر أيضاً لعناتها، حين تغضب، على الدنيا واليوم الذي تعارفنا فيه. مع هذا بقيتُ أهزّ رأسي بوقار. في البداية ارتبكتُ، وهززتُهُ في حركات متسارعة، لكنني سرعان ما انتبهتُ إلى أنّ عليّ أن أقوم بهزّه ببطء، لأبدو أكثر استساغاً وتدبّراً لما يقوله القائد. لم يتوقّف سرحان ذهني إلا حين صفّق الموجودون فجأة، فعرفتُ أنّه انتهى من حديثه الطويل، وقد تداركتُ اللحظة، وأوقفتُ اهتزاز رأسي، وصفّقتُ معهم. صفّقتُ بطريقة، شعرتُ بنشازها وعدم توافقها مع تصفيقهم المنظّم والملفت، والضّاجّ أيضاً، وكأنّه خارج من أيادي جمهور، تكتظّ بهم قاعة مسرح، وليس من أربعة فقط، على اعتبار أن تصفيق المصوِّرة كان شكلياً وغنجاً، وغير مسموع.

لقد ظلّت الفتاة الشّابّة واقفة بقامتها الممشوقة الطويلة خلف الكاميرا، تراقب شريط التسجيل، بدون ملل يدفعها إلى تحسّس المسدّس المربوط على خصرها. بدا لى أن القائد كان يلتفت، بين

وقت وآخر، إليها، وليس إلى الكاميرا، وأنه لم يكن يرفع رأسه ويُبقي نظره مصوّباً نحو الأعلى إلا ليداخل وجهها مع ألوان نقوش الزخرفة في سقف المكان، ثمّ يسدل جفنَيْه ليحفظ صورتها، وهي على هذه الهيئة، في عينَيْه، ويواصل الكلام.

-٤-

تمنّت نازك، وهي تقدِّم لي ما طبختْهُ لوجبة الغداء، لو كانت معي حين قابلتُ القائد. انبهرتْ وقد رأت سيّارة طويلة داكنة الزجاج تُنزلني أمام بيت الضيافة. قالت إنّها لا يمكن إلا أن تكون إحدى السّيّارات الخاصّة التي تحمل كل مَنْ يأمر القائد بمجيئه إليه. ولم تتمهّل لتسمع منّي تأكيداً لقولها، إذ سرعان ما أضافت بهمس أنّ حلمها الوحيد هو أن يأكل القائد من طبخها.

لم أكن أريد أن أُخبرهم، في بيت الضيافة، إلى أين ذهبتُ، لكنّهم صاروا شبه عارفين. قلتُ لهم إنني لم أرَ شيئاً. كانت السّيّارة معتمة، لا يمكن لأحد أن يرى مَنْ داخلها، وقد تكون النّظّارة التي ظلّ السائق يهزّها بعظمة أنفه، هي مَنْ تخترق هذه العتمة، وتكشف له وحده الطريق. "في هذه السّيّارات، لا أحد يستطيع اكتشاف المكان الذي يروح إليه" قالت نازك.

شاكر أبو الحُسن، السائق الذي ينقلني بصمت باستثناء عبارات معتادة، يدعو فيها الله أن يحفظ القائد، قال هذه المرّة: "المفسدون كُثر بجوار القائد حفظه الله"، وأضاف: "زعيمنا القائد الفذّ لن يرضى بما يحصل من فساد لو علم به". كيف لا يعلم وقد قيل لي إنّ النجم المُرسَل من شمس الخلود، الذي يسيِّره القائد يكشف كلّ ما يحدث؟ سألتُهُ، فصمت.

لم يكن هناك من ضيوف في بيت الضيافة غيري. قال الحارس عبد السلام، الذي يعيش مع زوجته وابنته فاطمة في غرفَتَيْن فوق بعض عند مدخل البيت، بجوار البوّابة، إن هناك بيوتاً أخرى ينزل فيها الضيوف. كان لنازك، أيضاً، غرفتها بجوار المطبخ المستطيل في فناء البيت، لا تبيت فيها إلا إذا اضطرّت لذلك،

وتكتفـي بالجلوس فيها بأوقات القيلولة، وهو ما يعمله، أيضاً، شاكر أبو الحُسن حين يجلس في غرفته المجاورة مستعدّاً لأيّ مشاوير تُطلب منه. المنظِّفة أُمّ أسعد هي الوحيدة التي ليس لديها غرفة، إذ تقوم بتنظيف البيت في ساعات الدوام المقرّرة لها، ثمّ تذهب. كان من الواضح لي أنهم في مكتب القائد قد هدفوا إلى عزلي في البيت الذي يتكون من طابقَيْن، وله أجنحة عـديدة، بغـرف مؤثّثـة بطريقـة ضـخمة. لم أرَ سوى العمّال، وجميعهم كانوا يعملون في خدمتي، وكأنّني مالك البيت أو ملك. قلتُ لنفسي إنّها خطوة لتجاوز الحال الذي كنتُ فيه، فعلى الأقلّ سأعيش بشكل جيّد بعد أداء المهمّة، بشكل قد لا يقلّ عن نصف ما أنا عليه في بيت الضيافة، ولم أطمع كثيراً. عدتُ وقلتُ لو أحصل على ربع من مستوى هذا العيش، فسيكون أفضل مقارنة مع حالي السابق، بل حتّى الثُّمن، نعم، الثُّمن.

أمضيتُ الكثير من الساعات في الاستماع إلى مَنْ في البيت. كانت أحاديثهم تُنقذني من وحشة الوحدة، في ظلّ الحصار غير المُعلَن حولي. حصار لم يكن مرفوضاً تماماً من قبَلي. فأنا أيضاً لا أريد أن يعرف أحد بمهمّتي السّرّيّة التي جئتُ من أجلها، وبالتالي لا أريد أن أخرج. وإن خرجتُ مرّة، فإنّ ذلك كان بدون قصد، أو إدراك منّي، كان بمثابة تنفّس، لا بد أن أقوم به لأواصل العيش، أو لأشعر، على الأقلّ، أنني ما زلتُ أعيش.

شعرتُ في الأيّام الأولى لمجيئي أنّ ما أعمله فضيحة في حياتي الأدبية والشّخصيّة، وقد ازداد هذا الشعور وأنا أتخيّل تصريحات للناقد مَصْل عن عملي مع ديكتاتور وبيع مواهبي الأدبية له، تلك المواهب التي قال من قبل إنني قد سخّرتُها للإشادة بالاستعمار. رأيـتُ نفسـي بمثابـة فضيحة، فضيحة ممنوعة من الخروج إلا بموافقة القائد أو أولاده. المُنذر، وهو أحد أولاده الثلاثة، امتلأت الصحف والمجلات بفضائحه في باريس وروما ولندن. هو مثلي فضيحة، وإن من نـوع آخـر، لكنّهم لا يستطيعون أن يحصروا فضيحته مثلي. ما كنتُ قد قرأتُهُ عنه قبل ما أجيء لم أجد ما يماثله، وقد صرتُ لا أقرأ شيئاً في هذه البلاد، وإن قرأتُ؛ فلا

وجـود للصحف والمجـلات التـي اعتـدتُ قراءتـها، أمّا لاقطـات التلفزيون، فلا تجلب سوى القنوات المحلّيّة. أمس رأيتُ فاطمة مـن البـاب المـوارب للغرفـة السـفلى لسـكن عائلتها تشـاهد أُغنيَّة راقصة في التلفزيون. ظننتُها تشاهد قناة فضائية، فرُحتُ لأتأكّد بعد أن توقّفت السّيّارة، ونزلتُ منها. حيّيتُها وأباها الذي يسارع في فتح البوّابة كلّما أخرجني أبو الحُسن بالسّيّارة أو أعادني. "هذه فُوحة، فنّانة مشهورة" قال عبد السلام وقد رآني التفتُّ إلى شـاشة التلـفزيون المـرفوع علـى طاولـة، فيمـا أسـرعت فاطمـة لتُصلح حجاب شَعْرها قبل أن تبتسم وتلوِّح لي بتحيّة من يدها. عمر فاطمة لا يتجاوز السابعة عشرة، وقد بدت تحاول أن تواري خجلها، وهـي تنـقِّل عينَيْهـا بـين وجـهي والشـاشة، حيـث كـانت الفنّانة بشَعْرها المنكوش وقميصها الشّفّاف المُظهِر لبروز نهدَيْها تـردّد، وسـط إيقـاع صـاخب تتشـابك فيـه صـور لعيـون وأجسـاد عاشقة، أُغنيّة عن حبيبها الذي منحها الدفء والحنان من حضنه، والأمان من عينَيْه والبهجة من بسمته، مع أن القائد الذي ظلّت تشير إلى صورته المطبوعة على قميصها، فوق صدرها، لم يكن يبتسم.

فـي قصـر الشـيماء، أو فـي البـيت الكبـير، رأيـتُ شـاشة كبـيرة مرفوعة في إحدى زوايا البهو، بإمكانها التقاط أيّ قناة فضائية. ظننتُ أن مقابلة الشيماء بعض عزاء أو فسحة، لا يمكن رفضها. أقـول لنفسـي كلّمـا اتّجـهتُ إليـها إن مقابلات كهذي ستُعزِّز مـن خبرتي الرّوائيّة. لكن ما طلبتْهُ منّي في أثناء مقابلتها الثالثة لي أدهشـني، ولـم أسـتطع أردّ عليـه، إذ قـالت صـراحة إنـها تـرغب بـالزواج مـنّي. بـدأت حـديثها إلـيّ بتـذكيري بشـخصية المـرأة المحرومة من الجنس، بسبب زوجها العِنِّيْن في روايتـي رغبـة، وكـيف عـانت هـذه الشّخصيّة مـن أجـل تحقيـق رغبتـها، رغبـة جسدها التي لا تختلف عن رغباته في الأكل والماء والهواء. لم تبدُ خجلة كالناقدة ميرنا حين تحدّثت في ندوة عن الجنس في هذه الرواية. "أنا أعيش الحرمان مثلها" قالت الشيماء، وحدّقتْ في وجهي، "الشاعر الذي لجأت إليه المرأة في الروايـة ليُحقّق رغبتها، ولم يفعل، كان قاسياً". ولم تزح نظراتها عنّي: "ماذا لو

جاءت لكَ واحدة تشبهها، محرومة من الجنس؟"، ضحكتْ وبدت أنها تحاول أن تحوِّل الموضوع إلى مزحة. "ماذا لو جاءت لكَ واحدة محرومة مثلي، في الواقع لا بالخيال؟". أبديتُ ضحكة مفتعلة كردّ على ضحكاتها ليس إلا، وقلتُ: "أنا متزوّج". وهنا ارتفع ضحكها: "تماماً، كما قال الشاعر للمحرومة في الرواية"، وأضافت: "الشاعر أيضاً، كان مثلكَ، زوجته بعيدة عنه". وإذ هدأ ضحكها بدا الموضوع، بعد هذه المقدّمات كلها، وقد صار جدّيّاً عندها. ولكنْ، لماذا أنا بالذات؟ أرادت الشيماء، التي تبدو في الثامنة والعشرين، أن أتزوّج بها سرّاً، لأنها تثق بي، "عند النساء قاعدة، وهي أن الغرباء أكثر أماناً وأقلّ خذلاناً" قالت. أعادت ما قالتْهُ في اللقاءَيْن السابقَيْن إنّها معجبة بتصويري للحرمان واللوعة، والتّمرّد الجنسي في روايتي، لهذا تثق أنني أتفهّم ما تعانيه؛ فهي لا تستطيع أن تمارس مُتَعَهَا بصفتها ابنة القائد. أحدهم تفاخر وأفشى سرّ علاقة له بها، فذبحه القائد؛ تتذكّر بهمس وألم. كان ذلك بعد أن اختفى زوجها من البلاد فجأة، ولم يعد أحد يعرف أين هو. هو الآخر تردَّدَ الكلامُ أن القائد ذبحه بعد أن أفشى سرّاً، لكنّه سرّ يتعلّق بالعائلة كلّها. هي لا تؤكّد ما تردَّد. وإن قالت إنّ أباها الديكتاتور، كما وصفتْهُ وبشكل مفاجئ لي، لم يتقبّل وساطتها في عدم عقابهما، فإنّها لم تُفصح عن أيّ تفاصيل أخرى. اعتقدتُ أن وصفها لأبيها على هذا النحو، يرجع لتذكّرها ما حدث لمَنْ قاسماها متعَتَها المفقودة، لكنني خفتُ، أيضاً، أن يكون حديثها عن عقابهما بمثابة تهديد لي، إذا رفضتُ طلبها.

-٥-

لا يبدو أن نادية مخيفة إلى حدّ تدعني أُشغل تفكيري بمهمّتها. فلا تغيب على مَنْ يراها ملاحظة بعض جوانب سلوكية، ترجّح فيها الجانب الفنّيّ، كونها رسّامة وشاعرة، كأحلامها الاجتماعية المتمرّدة حول المرأة والجنس والفنّ. هي لا تعمل أكثر من كونها سكرتيرة أو مقرّرة للجنة كتابة السيرة، تُدوِّن الملاحظات وما يتّفق ويختلف عليه المجتمعون في أوراق ترفعها إلى مكتب القائد. فهل يخيف ما تقوم به أعضاء اللجنة، وهم يعرفون أنّه

يرفع منها بأوراق رسمية وبدون تخفٍّ، وإن كان عمل اللجنة أصبح سرِّيّاً منذ انضمامي إليها، فلأنهم لا يريدون أن يعرف أحد أنني كتبتُ السيرة أو شاركتُ في صياغتها، فانتشار خبر كهذا سيكون مجلباً لشكّ الوسط الثّقافيّ بما يكتبه القائد من كُتُب، إذ سيعتقدون أن هناك مَنْ يكتبها له، وبالتأكيد سيكون اسمي من بين هؤلاء المتّهمين بعمل ذلك.

ناقشنا في اجتماعنا الجديد موضوع كتابة السيرة بعد أن قدّمتُ لهم تصوّري عنها، حسب طلبهم منّي في اللقاء الأخير. اختلفنا كثيراً حول طريقة كتابة السيرة ومواضيعها. أردتُ أن تُكتَب للقائد سيرة تُقرَأ من زاوية أدبية وإنسانية، فيما الأحمد أرادها بعيدة عن التفاصيل الخاصّة. حدّثتُهُم عن سِير أوديب ونيرون ويوليوس قيصر والإسكندر ونابليون وبوليفار وجيفارا ورؤساء أمريكا من جورج واشنطن إلى أوباما، قلتُ لهم إذا لم تكتب هكذا، فهناك مَنْ سيكتبها على طريقة رئيس أستورياس وبطريرك ماركيز وحفلة تيس يوسا و ديكتاتور شارلي شابلن وزعيم عادل إمام و... و...

ناقشوا معي أساليب كل الأعمال التي ذكرتُها، لكنّهم بدوا لي أنهم كانوا يريدون، فقط، أن يعرفوا أكثر عن هذه الأعمال الأدبية والفنّيّة، أمّا هم، فلن يختاروا كمرجعية للسيرة التي علينا كتابتها سوى سيرة القائد نفسها التي كُتبت من قبل، ونُشرت عبر عشرات الكُتُب والأفلام واللوحات والمسلسلات التّلفزيونيّة والدواوين الشِّعْرِيَّة والقصص القصيرة والروايات، بما فيها رواياته هو، روايات القائد. "ألم تقرأ رواياته؟" سأل الأحمد.

"بلى، قرأتُها" أجبتُهُ، ولم أكن في الحقيقة قد قرأتُها. اكتفيتُ بما كُتب عنها في الصحف.

"رواياته ورواياتي عنه، وكل ما كُتب وأُنتج عنه، صارت مرجعاً يُهتدى بها في كتابة أيّ سيرة جديدة " قال.

قالت نادية إنّ الأحمد ألّف مائة حكاية وحكاية من حكايات حياة القائد المُلهم الخالدة، "يظلّون على مدار العام يقدّمون كل يوم

حكاية منها في التلفزيون والإذاعة والسينما، يتابعها الجميع، ويعيدون متابعتها، ليستذكروا كل يوم ولحظة الأمجاد العظيمة، حتّى القائد نفسه يتابعها، ليستعيد أمجاده، تلك الأمجاد العُلا". وقاطع الأحمد قولها، ليؤكّد: "وحدها هذه الحكايات مَنْ تستحقّ استلهام السيرة"، وتدارك وهو يشير إليّ "ليس لأنني مَنْ كتبها، ولكنْ، لأن القائد المُلهِم هو مَنْ أوحى بها، وخلّدها أوّلاً بإحداثها، ثمّ بالسماح لنا بنشرها وبثّها وعرضها". كان يحرِّك يده اليمنى، المشدودة الأصابع، أفقياً، بما يبدو أن كلامه قاطع، ولم يعد بالإمكان أن أتحدّث عن سِيَر أخرى لقادة وزعماء آخرين، يمكن الاستفادة منها، فسيرة القائد الملهِم، كما صار واضحاً من كلامه، لا تشبه أيّ سيرة مكتوبة، أو حتّى معيشة من قبل، بل لا تشبه أيّ سيرة ستكون وستكتب من بعد.

استمعتُ بعدها لمقترحات الاسم الذي سيُطلَق على كتاب السيرة، وقد صرتُ لا أدري ما الجديد الذي يمكنني تقديمه بعد أن أكّدوا لي أنه لم يعد هناك أحسن ممّا كان. طاوعتُ نفسي على اتّباع توجّههم دون أن أُخفي ما أظنّه قابلاً لإدهاشهم، ويكون مناسباً، في أسلوبه على الأقلّ، لكتابة السيرة بطريقة جديدة، وإن لم تكن مختلفة. رأيتُ أن يشير الاسم إلى إسهاماته النّهضويّة المُلهِمة. لكن المُحبّ ردّ عليّ سريعاً: "هو ليس نهضوياً، وإنما هو النّهّاض الذي يَستلهِم الناهضون، في نهضتهم، قدرتَهُ"، وشرح أن ليس هناك إلهام يجيء للقائد، لكي يُبدع فكره، وإنّما القائد هو المصدر لهذا الإلهام، هو المُلهِم لخلاص البشرية جمعاء، من كل مشاكلها الدّنيويّة والآخروية، "نعم، الآخروية، كتلك التي تؤرّق الناس في علاقاتهم بربّهم وانتظارهم للجزاء أو العقاب" أوضح المُحبّ، وراح يتحدّث عن إلهام القائد للمفكّرين الاقتصاديّيْن والاجتماعيّيْن، بل لعباقرة الفكر عامّة ولمبدعي الآداب والفنون: "ليس هو بمفكّر أو عبقري، وإنّما المُلهِم للفكر والعبقرية". وإذ اتّضح لي شرحه، زاد الأحمد في القول إنّ القائد ليس قائداً لهذي البلد التي تحمل صفته، وإنما قائد لجميع البلدان والبشر: "لكلّ العالم، فهو قائد أممي، وليس قائد أمّة، هو قائد الأمم، التي ستتوحّد ذات يوم بفضل إلهامه، إلى أمّة واحدة، يكون هو

قائدها". لقد وحّدها القائد بهدف واحد وإرادة واحدة تسير على هدى القائد، وما بقي سوى شكلي، "هو الموحِّد العظيم، أكبر من كل الموَحدين الفاشلين، وحدته وحدة لا تفكّ عراها، وحدة قوية متماسكة بجبروت الزعيم القوي، أُمّة في قبضة قائد عظيم، أمّة هي روح القائد، موحّدها وموجدها، خالقها، بل خالقها الأعظم".

لم أستطع أن أقول أيّ رأيّ، وواصلتُ مطاوعتهم في الأمر، لهذا وجـدتُني سرعان ما استلهمتُ من حديثهم ما كانوا هم قد استلهموه من القائد المُلهِم، واقترحتُ أن تكون السيرة بعنوان: العقد الفرد في سيرة المُلهِم الأحد مُعمِّر الدِّين والدنيا وسائس الناس. شرحتُ أن العنوان بمثابة التوصيف المطلق للقائد الأوحد الذي لا شبيه له، مع وصفه، أيضاً، كسياسي وقيادي، قائد القادة، زعـيم الزعمـاء، عظـيم العظماء، والمُعمِّر: بمعنـى المُنـهِّض، أو النَّهَّاض الذي تحدّث عنه المُحبُ. أمّا سائس الناس: فهو الاسم الشّعبيَ المتواضع في شخص القائد.

لا أدري كيف خرجتْ هذه الأفكار منّي لحظتها. ماذا لو وصلتْ مقترحـاتي إلـى شـخص القائـد. سـيقول: هـل بالضـرورة هـذا التواضع؟! ثمّ ما هذه الكلمة: شخص القائد، هل أنا شخص، مجرّد شـخص؟! و... ألا توجـد كلمـة أخـرى غيـر النـاس التـي توحـي بالفقراء؟ الجماهير كلمة أفضل، سيقترح الأحمد، إنها صفة تعني أن الجمـيع هـم جماهير القائـد، وتشـمل الطبقـات كلـها: فقـراء وأغنياء، ومن مختلف المناطق، وتجمع النساء والرجال والأطفال والشيوخ.

مـا كنـتُ أظـنّ أنّني استوعبتُهُ لم يكن كذلك، وها أنا قد رأيتُ غضبهم حين حدّثتُهم بصفتهم مساعدين للقائد. لم أستطع أن أتخيّل مكانتهم بشكل أفضل؟ أفضل لمَنْ؟ لهم وللقائد. ها أنا، قد صار عليّ أن أتفهّم فكرة أخرى، يجود بها مَن استوعبوا مُلهمات القائد قبلي. فالجماهير، وليس الناس، كلّهم طلاب إليه. نحن لسنا مساعدين، قال المُحبّ. كيف نساعده؟ هل هو يعجز عن عمل أيّ شيء؟ نحن نساعد أنفسنا حين نطلبه، نحن طلاب، لا مساعدين.

قلتُ لهم: إنني أستطيع أن أكتب السيرة في شهر، وكان قد مرّ شهر في البحث والاستقصاء عن سيرة القائد. لقد اشتقتُ لسماح التي تركتُها وحيدة تقاسي مرض السرطان، وبدون مال لتُواصل العلاج. فكّرتُ أن أكتب للقائد، وألتمس منه العذر لطلبي منه مساعدتي بإنقاذ زوجتي، لكنني خفتُ أن يخالف طلبي الشروط التي عليّ تنفيذها. لا أذكر ما هي هذه الشروط. يوم سماعها كنتُ سارح الذهن، وأنا أفكّر بكيف سيكون حالي وقد قبلتُ القيام بما لم يكن يخطر على بالي. لم تبقَ في ذهني من كلمات محمّدين سوى: شروط، مهمّة سرّيّة، كتابة سيرة، وأهمّ هذه الكلمات كانت: ستحصل على مكافأة عظيمة.

أعطوني في اليوم الذي وصلتُ فيه ألف ورقة من العملة الوطنيّة فئة المئة، المزيّنة بصورة القائد، كمصروف جيب. فكّرتُ للوهلة الأولى بإرسال المبلغ أو جزء منه لسماح، لتوفّر به العلاج، لكنني عرفتُ من فاطمة وأبيها أن الإرسال صعب، بل وغير ممكن. لم أكن أدري كيف سأصرفه، فيما أنا ممنوع من الخروج من بيت الضيافة، أو بالأصحّ على ماذا سأصرفه، فلا وجود هنا مجال لتحقيق الرغبات سواء مع المال أو بدونه، وكأنّ كلّ الرغبات مخالفة، بالطبع، لشروط تحقّقها، بما فيها رغبتي بأن أُنجز كتابة السيرة في وقت أسرع؛ فمن الضروري، حسب ما نبّهني أبو اليُمن، ترديد القول إن كتابة السيرة ستكون صعبة وغير مكتملة حتّى وإن اكتملت، إذ هي تتحدّث عن مُعجِز عظيم صعب الإلمام بحياته وإعجازاته، تتحدّث عن القائد، المُلهِم الأكبر، وزعيم الزعماء.

"هل يظنّ نفسه، هكذا، بالفعل؟"

"نعم، ما تتصوّر من شخص مثله؟" قال أبو اليُمن بعد أن صرنا في حديقة مكتب التوجيه الفكري، وبدون جدران، حيث لم يعد يوجد مَن سيعترض على وصف القائد بالشخص. استعاد وهو يدور بي في الحديقة ما حدث حين كان يعمل في شعبة تحرير الجماهير عالمياً؛ كان المقرّبون يحظون ويتشرّفون بدعوات لمشاهدة حديقة الحياة، مع القائد، حيث جُمع في جانب من

الساحة الطويلة للقصر الأعظم حيوانات من كلّ نوع، ذكوراً وإناثاً، غالباً ما يكونون في حال ممارسة جنس دائم، بفضل اختصاصيّي مخصّبي الشهوة، الساهرين على ذلك، والذين ينتظرون أن يأتيَ القائد إليهم في أيّ وقت، ليبتهج بأساليب المضاجعة المختلفة. ظنّ أبو اليُمن حين دُعي لأوّل مرّة إلى الساحة أنّه سيشهد مثل تلك الممارسات المهيّجة، لكنه فوجِئ إذ رأى نفسه وقد حضر ليرى الطريقة المثلى للتحرير الجماهيري العالمي التي لم تتوصّل إليها عشرات الدراسات والكُتُب المُنجَزَة من أعضاء الشعبة، فلقد: "جُلبت للقائد قِطَع شطرنج كبيرة في مخطّط شطرنجي أرضي بساحة القصر، رصّوا مائة وعشرين ملكاً، حسب أمره. وبجوارهم وأمامهم رصّوا مئات الوزراء والضّبّاط والقلاع والجنود. راحوا يحرّكونهم حسب إشارات سبّابة يد القائد اليمنى. ثمّ بعد أن انتظر الحضور بفارغ الصبر الخطوة التالية، سحب القائد مسدّسه الذّهبيّ من خصره، وقام بتصويبه نحو الملوك واحداً واحداً. كان يزمجر ويتنحنح بتلذّذ وهو يعمل ذلك. بعضهم أطلق عليهم الكثير من الرصاص وهو يردّد أسماءهم بغضب وانتقام. نطق بأسماء ملوك ورؤساء من مختلف بلدان العالم، تجاوزوا العدد الموجود، لهذا طاش الرصاص إلى القريبين من قِطَع الشطرنج الملكية، ليقوم جنود من الحَرَس، بعد أن أعاد المسدّس إلى خصره، بأخذ القَتْلى إلى حفرة كبيرة، فرشوا قاعدتها بالقاذورات. أمّا البقية من جنود وضبّاط ووزراء وقلاع وأحصنة، فقد جمعوهم في كيس، ووضعوهم في جانب من طرف أسفل عباءة القائد، إذ لم يعد أمامهم سوى الالتحاق بمملكته، جمهورية عِراسوبيا العظمى، التي لم تكن قد دُعيَت بعد ببلاد القائد".

-٦-

دعتْني الشيماء من جديد، لتسمع منّي جواباً على طلبها الزواج منّي. بدت لي أنها تشعر بالمَلَل، وتريد أن تعيش الزواج هرباً من هذا الملل ليس إلا، وهي، كما ظلّت تردّد، ابنة القائد، ابنة الرمز، ولا يمكن أن تصبر، وأن شرع الإسلام أجاز الزواج حتّى من أربع.

ومع أن قولها يخالف توجيهات أبيها التي سمعتُ من نادية أنّه منع بموجبها زواج الرجل بأكثر من امرأة، إلا أنها ظلّت تكرّر القول، وكأنّها تريد أن تُقنعني أنا المتزوّج بواحدة، "إنّ هناك حكمة من الزواج من أربع، أو اثنَتَيْن على الأقلّ. هذا الزواج قد يخفّف حرمان أو عذاب امرأة لا يرضي اللّه. وأنتَ مَنْ صوّر هذا الحرمان في روايتكَ".

طرحتْ أمامي خيارات جديدة لأنواع من الزواج، تراها صالحة، بغضّ النظر على مذاهب أتباع الداعين إليها: زواج مِسيار، زواج عُرْفي، زواج متعة، زواج فرند. والأخير وجدتُهُ سهلاً، ويمكن أن أُطبّقه في حياتي مع زوجتي، بحيث نبتعد عن بعض بين وقت وآخر بسبب مشاغل الحياة أو الكتابة، لكنني لا أتقبّله مع امرأة ثانية إلى جانب زوجتي. يا تُرى، ما أحوال سماح؟ مشتاق إليها، إلى سماع صوتها حتّى وهو يئنّ، أو يصيح من الضجر والفقر. قلتُ للشيماء: الزيجات كلّها تعجبني؛ ولا أدري كيف تسرّعتُ في ذلك. كيف قبلتُ أيّ شيء. بالتأكيد لم تقم بغوايتي، فهي ليست جميلة الملامح أو الجسد، وتبدو فتاة ضجرة من كل شيء، حتّى إني أحسستُ فجأة، بعد أن أتت بقاضٍ سرّيّ لإتمام عقد الزواج، أنني قد قبلتُ بالزواج من الضجر. لم يكن هناك أيّ مؤثّرات في قبولي عرضها، حتّى إن هديّتها، وهي كتلة ذهبية منحوت عليها صورة القائد لم تقدّمها لي إلا بعد موافقتي. برّرتْ تقديمها لي بأنها تؤمن أن التماثيل حرام. وأنها لم تعرف كيف تتخلّص من هذا التمثال منذ أن أهداه لها أبوها. أن أقدّمه لصائغ ذهب، حين أرجع لبلدي، ليُعيد تشكيله، هو الطريقة المُثلى لاستفادتي منه، كما قالت، مُنوِّهة أنها ستوصي سلطات المطار بالسماح لي بخروجه، كما ستضمن وصوله إلى منزلي. شعرتُ أنها هدية ثمينة جدّاً، ولكنها لا تُسعفني في إنقاذ زوجتي. سماح التي لا تفارق بالي طوال مكوثي الليلي الطويل مع الشيماء، والتي أنهتْهُ بالقول إنّ عليّ أن آتيها مساء بعد غد، لأحضر حفلة عندها. ولم أبالِ، وقد أحسستُ بالكثير من الإنهاك، أن أسألها ما المناسبة؟
سألتُ سائق السّيّارة في أثناء العودة: هل تسمع أغاني محمّد منير؟ بدا أنّه لم يسمع بهذا الاسم. هل لديكَ أُغنيّة علشان

يشبهلك؟ لم يجب، وفتح مُسجِّل السّيّارة على أُغنيّة بدوية، لم أستطع التركيز على كلماتها وألحانها الإيقاعية. أُغنيّة منير هي وحدها مَنْ كنتُ أُنصت إليها وهي تتردّد في ذاكرتي:

علشان يشبهلك، يا حبيبتي

علشان يشبهلك

حبِّيته

كان نفسي أناديلك

يا حبيبتي

كان نفسي أناديلك

وناديته

كان نفسي أناديلك أشكيلك

أسمع منك أبكيلك

كان نفسي أنوَّر لك قَمري

وأعملك بإيديَ الشاي

وأحكيلك في الليل حكاياتي

وأغنّي لعنيكِ بناي

كان نفسي أضمَّك وبقوَّة

أضمَّك إنتِ مش هو

كان نفسي أناديلك أحكيلك

أسمع منّك أبكيلك

كان نفسي وجريت أيامي

هدني البحر ووَدّاني

كان نفسي...

كان نفسي أضمّك وبقوّة

أضمّك إنتِ مش هو

كان نفسي أناديلك أحكيلك

أسمع منّك أبكيلك

كان نفسي أناديلك أحكيلك

أسمع منّك أبكيلك".

-٧-

في اليوم المحدّد للحفلة ازدحمت المواعيد، ووجدتُني مُسيَّراً لا مُخيَّراً، ففي الصباح اتّصل بي السائق على التلفون الدّاخليّ، ونبّهني إلى أن عليّ أن أتجهّز للخروج سريعاً. لم يقل لي وهو يمضي بي في طريق أكثر من ساعة إلى أين سيأخذني. أحسستُ أن لديه تعليمات لم أجرؤ على سؤاله عنها. أوصلني إلى مكتب في غرفة ضمن بناية مستطيلة طويلة، وأبقاني وحيداً. كان هناك عدد من الأشخاص يلبسون الزيّ العسكري قاموا باستقبالي إلا أنهم لم ينطقوا بكلمة واحدة، واكتفوا بالإشارات. ظهر الموجودون في الساحة مرتبكين، وأنا ألاحظ حركتهم من بين حدائد الشبابيك وستائرها. وفجأة، بعد مرور ما يزيد على ساعَتَيْن ونصف، ازدادت حركة أصحاب البزّات العسكرية، ليجيء ثلاثة منهم إليّ. مدّ أحدهم يده ومسك بيدي، ليقودني إلى الخارج، فيما تقدّمنا أحدهم، ومشى الثالث خلفنا. ما إن خطوتُ عدّة خطوات حتّى رأيتُ سجاجيد خضراء، على طول الساحة، لم تكن قد فُرشَت حين وصلتُ. كان هناك مجاميع قد اصطفّوا بطريقة منظّمة على جانبَي السّجّاد ممّا يوحي أنهم ينتظرون شخصاً مهماً أو مسؤولاً. ولم تتشعّب الظنون، إذ سرعان ما وصلت السّيّارات الطويلة ذات الألوان الداكنة والفاتحة، ليخرج

من إحداها القائد، وسط تصفيقات وهتافات تمجيدية. ألصق القائد راحتي يَدَيْه ببعضهما، ثمّ رفع يَدَيْه عالياً كتحيّة للمستقبلين. مشى من جواري، وكأنّه لم يرني. هل كنتُ أتوقّع أنّه سيخصّني بسلام عن المستقبلين كلهم؟ تابع خطوه وسط حشد منظّم من الحرّاس والأشخاص الذين كانوا في مقدّمة مستقبليه. واصل أصحاب البزّات العسكرية اقتيادي، لنتبع الجمع، إلى أن جلس القائد على كنبة ضخمة بوسائدها في منصّة مرتفعة. وما إن اتّكأ حتّى ناوله أحدهم عصا ذهبية، كانت معلّقة بمشجب زاهي الألوان بجوار الكنبة. أشار بعصاه إلى الساحة الممتدّة أمامه بأفق شمسي فضّيّ، وقال، كما بدا، كلمات لم تكن مسموعة للبعيدين مثلي. استقام أمامه أربعة أشخاص ببنطلونات وقمصان رمادية مدنية، في حين راح يهمس إلى أحد مرافقيه الذي أحنى رأسه أمام وجهه. جاء أحد مرافقيه، ومسك يدي، ليقرّبني إلى أمام القائد. رفع رأسه حين رآني، وقال بعض كلمات. لم أفهم ما قال، وظننتُهُ يُرحِّب بي أو يُحيِّيني، فقلتُ: "تحيّاتي، سيّدي القائد، شكراً لكَ". أشار إليّ أن أجلس على كرسي في الجانب المقابل ليمينه، وكان آخرون قد جلسوا على كراس أخرى.

"شكراً لكَ، أيّها القائد، لقد أنرتَ شمس الخلود، خلودكَ، بزيارتكَ هذي". قال أحد الأربعة المستقيمين.

فهمتُ من خلال ما سمعتُ وما قرأتُ من مقالات أن شمس الخلود هذه صناعية، لكنني لم أعرف الفرق بينها وبين الأقمار الصّناعيّة أو صفائح الطاقة الشّمسيّة. "وحدكَ، أيّها القائد، يمكنكَ أن تُوجّه بتسيير هذه الشمس. تمنح عطاءكَ منها لمَنْ أردتَ. ترسل لأيّ أرض السحب، لتُمطر فيها، وترسل الخير لأيّ أرض أردتَ".

مَنْ بدا أنه كبير المهندسين أو المشرفين، والذي لم يُعرِّف باسمه أو صفته، تحدّث أمام القائد بحماس شديد عن هذه الشمس الخالدة، لكنّه بقي يلتفت إليّ في أثناء ذلك، وكأنني المقصود بسماع حديثه، إذ إن مزايا الشمس يعرفها القائد، وهو المُلهِم لمخترعيها ومبتكريها، حتّى صار من الاعتيادي أن يسمّونها أيضاً شمس القائد، وإذ كانوا يطلقون عليها شمس الخلود، فإنّها

بالتأكيد تعني خلود القائد.

بدت الشمس شبيهة بشكل عنكبوت كبير جدّاً، امتدّت على ثلاثة جوانب بخطوط فضّيّة مشعّة حتّى غطّت مساحات الأفق، فلا يُرَى شيء بعدها، وكأنّها بحر وقفنا على شاطئه.

"مُبهِرة" قلتُ للقائد حين سألني عن رأيي.

لمحتُ أعضاء لجنة تأليف السيرة في مكان مقابل. أبو اليُمن كان قد قال لي حين خرجنا معاً إن القائد كان يفكّر بعمل شمس سوداء، وإنّه لم يفهم سرّ اهتمامه بهذا اللون سوى أنّه يرتبط بلون فتيات أفريقيا اللواتي يحظينَ بإعجابه الشديد. "لقّبه أحد رؤساء أفريقيا بإمبراطور الكون؛ لا يعرف أن القائد لا تعجبه هذه الصفة. هو يرى نفسه أكبر من إمبراطور" قال أبو اليُمن، ليضيف وهو يكتم ضحكته: "كان يُفترَض أن يكون اسمها شمس الحَلَمَات، بحيث تكون حَلَمَات البنات كالنجوم حولها". واستدرك: "لكنْ، لماذا يفترض، وبإمكانه أن يعمل شمساً أخرى، وهو القادر على كل شيء؟!".

بعد أن غادر القائد، بقيتُ أنتظر السّيّارة التي ستُعيدني إلى بيت الضيافة، ولم أكن أعرف أين هي مع ازدحام السّيّارات، وتسارعهم لِلَحاق موكب القائد. اقترب منّي خلالها بعض المسؤولين للتّعرّف إليّ، ومنهم نوّارة، إحدى أمينات السّرّ العاملات في خدمة القائد، التي استغربت أن لا يأتي بي زوجها الأحمد إلى بيتهم وهو روائي مثلي، بل إنه روائي القائد، ولا أعرف إذا كانت تعني أنه أفضل بكونه كذلك.

لم تدعني أنتظر السائق، وأخذتْني بسيّارتها إلى منزلها، فيما الأحمد استقلّ سيّارة أخرى.

كانت هناك وجبة عامرة من الأكل المحلّيّ تمّ تجهيزها من قبَل خَدَم البيت فيما نحن في الحفل. ربّما هي مأدبة يومية.

بدت نوّارة هي المتحكّمة في البيت، ولم يتحدّث الأحمد سوى بضع كلمات مُرحّبة بي حين لحق بنا. أخبرتْني، ونحن نتهيّأ للأكل،

عن أمينات السّرّ اللواتي يختصّ عملهنّ بالحفاظ على الأسرار العظيمة للقائد، كونهن المؤتمنات الوحيدات على حياته وشؤون مكتبه إضافةً إلى قيامهنّ بالرعاية الصّحّيّة والغذائية له. أشارت إلى ثلاث صور في إطارات مختلفة، ملتصقة بالجدار، تظهر فيها برفقة القائد، إحداهنّ بدت فيها خلفه وهي في ملامح جادّة، أمّا الثانية، فقد ظهرت فيها وهي تمدّ يدها لمصافحة القائد في حفل لتوزيع شهادات دراسية فيما يضع هو يَدَيْه على جنبه. هل التُقطَت الصورة في اللحظة التي مدّت فيها يدها فيما هو كان على وشك أن يمدّ؟

"هذه سالمة" قالت وهي تشير إلى شابّة في العشرينيات خلف القائد في الصورة الثالثة، وجهها شديد السمرة، بتقاطيع متجهّمة. "تظهر عادة إمّا بمحاذة كتف القائد الأيمن أو الأيسر، وبشكل متحرّك". وراؤها رجلان. "للأنثى مثل حظّ الذَّكَرَيْن" قلتُ ضاحكاً. "القائد قال هكذا مرّة وهو ينظر لصورة مشابهة" قالت. استغربتُ أن يتوافق تفكيري مع تفكير القائد، مع أنني قلتُها بضحك، فيما هو بالتأكيد، لن يقولها سوى بجدّيّة. "هذان هما الحارس الشّخصيّ أبو الهيثم والحارس الأمني السّماويّ". الأوّل مدير الأمن الخاصّ "رجل المخابرات الأوّل للدولة وللقائد" قالت. أمّا السّماويّ، فيوصف بمدير الأمن الثوري، ويعني رجل مخابرات الثورة الأوّل. خلفهما، وفي الوسط كان هناك آخرون. "هم الضيوف أو المَعنيّون المسؤولون في الموقع المزار" أوضحت. في القرب منهم ثلاث أمينات سرّ. "أنا نوّارة" قالت وأشارت إلى موقعها في الصورة؛ بدت قريبة من القائد، لا يفصل بينهما سوى مترَيْن وبضعة وجوه. "وهذي فرّوحة. وهذي سارة". كنّ الثلاثة في شكل متقارب. "نحن أمينات سرّ متحرّكات. نتوازى مع المسؤولين والضيوف، لكن الصورة تُظهِرنا خلفهم. هذه تعاليم القائد".

هناك رحمة، وتبدو في الصورة شابّة وجميلة، تقف على يسار القائد، ولكنْ، من بُعد، تفصلها عنه وجه سالمة أمينة السّرّ الأساسية. وهناك رجلان أيضاً، خلف رحمة، وخلف الرجلَيْن أربع

نساء. الطّيّبة التي تعرّفتُ إليها في القصر كانت على يمين القائد، ولكنْ، من بعد، مثل رحمة، يقف وراءها، كما الجانب الأيسر رجلان، وخلفهما أربع نساء.

لم يكن هناك لون موحّد لبنطلونات وجاكتات أمينات السّرّ، على عكس رجال الأمن والحرّاس الشّخصيّيْن المميّزين بملابسهم الرّماديّة.

كان يمكن أن تطول الجلسة بعد الغداء، إذ صارت نوّارة تتحدّث عن الحقوق التي تحقّقت للمرأة في بلاد القائد، لولا أنني قاطعتُها بالقول إن لديّ موعداً مع الشيماء، فارتبكتْ، ولم تدرِ ما تقول، وعجّلتْ بخروجي، وكأنها تطردني.

-٨-

بدت الحفلة كأنها بمناسبة حصولها عليّ. هكذا يمكن القول. اندهشتُ وأنا أرى الشيماء. كانت تضحك طوال الوقت، فتُظهِر ما خُفي من مفاتنها التي من الصعب اكتشافها، كما بدا لي، بدون هذه الضحكات.

همستْ لي، ضاحكة، أن أخطبها من أخيها المعتزّ، وكانت قد قدّمتْني إليه حين وصلتُ. لكن المعتزّ تصرّف وكأنه يعرف أننا صرنا زوجَيْن بعقد شرعي، وإن اتّفقنا على بقائه سرّاً. "أراكِ الليلة أسعد مخلوق على وجه الأرض" قال لها.

الوزير أبو النُّبل الذي سبق أن رأيتُهُ عند القائد، وكان موجوداً في الحفلة، هو مَن تكفّل بتعريفي بمكانة المعتزّ في بلاد القائد. قال ونحن نقف أمام طاولة المشروبات إنّه منفتح، ويدعو للإصلاح، وإن الشباب كلهم معجبون به، لأنّه يمثّل تجدّد الثورة.

لاحظتُ أن المعتزّ كان يتصرّف حين يطرح عليه بعض الحضور إحدى القضايا وكأنّه الحاكم الفعلي مع أن ليس له أيّ صفة سوى أنّه ابن القائد.

مع هذا كان أكثر تواضعاً من أبيه، فقد بدا بتصرّفاته كلها وكأنّه

يقول: ما أنا إلا بشر مثلكم، صديقكم، أخوكم، في بلد واحد، بلدنا كلّنا. تحسّ مع المعتزّ وكأنه صديقكَ الذي كنتَ تضاربه في الحارة أيّام المراهقة، صديقكَ الذي يعرف آخر وجبة أكلتَها من يد أُمّكَ، وما الوجبة التي تكرهها من يد زوجتكَ. تذكّرتُ حديث أبو اليُمن عن القادة الساحرين، أولئك الذين يقتلونكَ وأنتَ تبتسم. قال إن هذا ما يفتقد إليه القائد الذي خبره عشرات السنوات. لم يقل لي إذا كان المعتزّ يشبه هؤلاء.

في الحفلة رأيتُ، أيضاً، محمّدين. عرفتُ منه، هذه المرّة، أن القائد نفسه هو مَن أسماه هكذا، اختصاراً لاسمه مع اسم أبيه محمّد بن محمّد. كانت تصرّفاته هذه المرّة تظهر جانب الشاعر فيه، وتغلّب هذه الصفة على صفة الدّيبلوماسيّ. حين اقترب منّي عرفتُ سبب ذلك؛ لقد كانت تصدر من فمه رائحة خمر.

"انتبه لصاحبكَ" قال المعتزّ لمحمّدين وهو يشير إليّ. وسرعان ما ظهر هذا الاهتمام بأخذي إلى جوار قوارير وعلب المشروبات فوق الطاولة الموضوعة في زاوية من الصالة. كانت تحتوي على كثير من أنواع الأشربة، ولم أختزْ منها سوى كأس نبيذ فرنسي أحمر. فهمتُ، دون أن يقول لي أحد، إن الأشربة تتواجد في هذا المكان بشكل خاصّ، لأنّها كما هو معروف ممنوعة في بلاد القائد.

اقترب منّي المعتزّ حين رآني أتناول كأس نبيذ، وهمس: "سأزوركَ إلى بيت الضيافة". التفتُّ إليه، ولم أقل شيئاً. لقد فوجئتُ بقوله هذا. ماذا يريد منّي هذا الآخر؟ ولماذا يقول ذلك بهمس؟ لقد بدأ بالي ينشغل بزيارته المرتقبة من لحظتها، ولم أهدأ طوال السهرة وأنا أفكّر بزيارته المرتقبة.

"يا مَن صلّى عليه" قال محمّدين ضاحكاً وهو يصافح الصحافي ياسين العِكْش، والذي راح يرحّب بي أمام استغراب محمّدين من أننا نعرف بعضنا البعض. لم أفهم ماذا يقصد بعبارته "يا مَن صلّى عليه" إلا بعد أن ابتعدنا عنه، إذ قلتُ لمحمّدين إنه هو مَنْ نشر خبر مجيئي إلى بلاد القائد في الصحيفة، واستغربتُ أن القائد لم يعاقبه مع أن زيارتي سرّيّة. "كيف يعاقبه وهو مَن صلّى عليه

وسلّم" قال. أخبرني أن الأحمد حكى للقائد قصّة من كُتُب التراث جاء فيها أن فقيهاً يُدعى يحيى بن سفيان قال: رأيتُ بمصر جارية بيعت بألف دينار، فما رأيتُ وجهاً قطّ أحسن من وجهها، صلّى الله عليها. فقيل له، يا أبا زكريا، مثلكَ يقول هذا مع ورعكَ وفقهكَ؟ فقال: وما تُنكر عليّ من ذلك؟ صلّى الله عليها وعلى كل مليح، يا ابن أخي الصلاة رحمة. فاتّخذ القائد العبارة مدخلاً له حين كان يطلب من الأحمد أن يحكي له قصّة من سيرة الحجّاج صلّى الله عليه وسلّم، حسب قوله.

إعجاب القائد بعبارة صلّى الله عليها، حفّز الأحمد على اقتراح أن تكون عبارة "صلّى الله عليه وسلّم" ملازمة لاسمه، فاشتاط القائد غضباً، وأمر بسجنه بحجّة أن هناك مؤامرة، لأن هذا سيؤدّي إلى بلبلة وسط جماهيره التي اعتادت أن تسمع هذه العبارة مقرونة باسم النّبيّ محمّد. يومها، كما قال محمّدين، خاف الأحمد، وارتبك، ولم يدرِ ما يقول، لولا الصّحافيّ العِكْش الذي أظهر شجاعة غريبة في حبّ القائد، وكان في مجلسه يومها، إذ قال له: إن العبارة تليق بكَ، وأنا أُعجبتُ بها، سأستخدمها في إطارنا دون أن تخرج على الملأ، ولأنني صادق بحبّكَ وبالولاء لكَ، فإنكَ إذا أردتَ أن تعدمني بحجّة وجود مؤامرة، فاعدمني أنا، وليس الأحمد، اعدمني الآن، صلّى الله عليكَ وسلّم. لكن القائد لم يعدمه، ويقال إنه منحه، مع الأحمد، مائة ألف من عملة القائد في إصدارها الأخير الذي يحمل صورته.

بدا المعتزّ وكأنه حريص على أن يبدو ديمقراطياً بيننا. لم يتردّد في نقد بعض الممارسات اللاديمقراطية. وهنا تحدّثت الشيماء عن مدوّنة على الإنترنيت باسم الحالمة بموت الرئيس، فلم يغضب، وظهر كأنه يتعرّف لأوّل مرّة على المدوّنة، وقال إن صفة الرئيس لا تتطابق مع صفة القائد. سأل الشيماء عن رأيها؟ فقالت: من حقّها، وهل نحاسبها على أحلام؟ أشارت إلى طرافتها، بالرغم من قسوتها في الألفاظ وجرأتها في الأحلام. "تنشر كل يوم حلماً بالعربية والإنجليزية". قرأتُ بعض تلك الأحلام من اللابتوب الذي طلبت من أحد معاونيها أن يأتي به: حلمتُ أن الرئيس كان يشاهد

مسـرحية الزعـيم لعادل إمـام، ومـات مـن الضـحك، حـاولوا أن يُسعفوه، ولكنْ، دون جدوى، لقد مات. و: حلمتُ أن الرئيس كان يطارد كلبة في الغابة، بقي يلهث وراءها حتّى مسك بها، وحينها مات من الفرح. كانت الشيماء تقرأ كل حلم، ثمّ تسأل كل واحد: مـا رأيـكَ؟ كـيف تـرى؟ وكـانوا يجـيبون بآراء لا تخلو من شتم الحالمة وأحلامها.

ظننتُها، حين التفتت إليّ، ستسألني كما عملت مع الآخرين، لكنّها ابتسمت وهي تهمس: "أمّا رأيكَ، فسأسمعه بعد أن يذهب الجميع، بـيني وبينـكَ". لكنّهـا مـا إن ذهـب الجمـيع، حـتّى وقفـت أمـامي وقالت: "ما رأيكَ فيَّ؟".

صار من المؤكّد لي أن بعض المحتفلين معنا يعرفون أن جمعنا هذا المساء في منزلها الكبير كان من أجل إشهار علاقتنا السّرّيّة، أو لأقلّ زواجنا السّرّيّ. كيف يكون ذلك: إشهار أن هناك علاقة سرّيّة تربطنا ببعض، أن هناك زواجاً سرّيّاً يجمعنا؟

شعرتُ بالراحة وأنا أرى الشيماء سعيدة ومطمئنّة على هذا النحو، لكـن هـذا الشـعور سـرعان ما احـترق، إذ تـذكّرتُ سماح، تـذكّرتُ وحشتها بدوني، مرضها واستغاثتها التي ما من شكّ أنها ترسلها إليّ في كل لحظة، وأنا... أنا أين أنا؟

أفكّر: لماذا الحبّ يبدو، في معظم الأحيان، كأنّه فضيحة؟ لماذا لا أحبّ سماح والشيماء في الوقت نفسه؟ آه، اغفري لي، يا سماح. لقد صرتُ غير ما أنا عليه. لكنْ، هل بالضرورة أن يكون المرء على ما هو عليه، أعني ما رسمه الآخرون من صورة له، أو حتّى ما رسمه هو لنفسه، أو ما ظنّ أن عليه أن يكون على هذا النحو أو ذاك؟

مع هذا، كيف يمكن أن أضع سماح في صورة واحدة مع الشيماء. أنا آسف، سماح. لا أظنّ أن بالإمكان أن يحدث هذا. لكنْ، ومع لكنْ هذه، لقد حدث ما لم يكن في الحسبان حدوثه، وصارت سماح والشيماء في صورة واحدة.

كانت الشيماء قد اختفت بعض الوقت بعد أن أشارت إليّ بأن أنتظرها. فبدت حين عادت بملبس زاه آخر، ومكياج أظهرت لمساته على وجهها جمالاً مخبّأ، لم أكن قد انتبهتُ إليه.

لهذا لم أستطع الجواب على سؤالها، ووجدتُني، وقد أخذتْ بيدي، أتتبّع رائحة عطرها إلى مكان آخر مختلف، ضاع فيه الرأي، وتاه الفكر.

-٩-

أرق في الليل لا شفاء منه. كان يكفي أن أضع رأسي على صدر سماح، لتداعب شَعْري فأنام. كان يكفي أن أشمّ رائحتها، رائحتها التي لا تشبه عطور الدنيا كلها. سماح بالنسبة إليّ هي عطر الدنيا. كان يكفي أن أسمع صوتها وهي تسألني ما بكَ؟ كان يكفي أن أحتمي بها وأناديها: سماح.

مع الأرق تتداخل الوجوه في البال؛ أتنقّل من صورة إلى أخرى. جميعهم يخافون، يخافون من كل شيء، من الرقابة والمتابعة، من الناس، من البيوت، من الجدران التي يظنّون أن لها آذاناً، يخافون من ظلّهم ومنّي. هل يخافون منّي؟ بلا شكّ إنهم يخافون منّي، بل إنهم يخافون من أنفسهم، يخافون أن يسقطوا في كلمة ما، في بوح ما، في نقد ما يمسّ جلالته، جلالة القائد.

أبو اليُمن كان أكثر واحد يُعبِّر عن رأيه، ولكنه يقوم بذلك إلى حدّ ما، فرأيه الأكثر جرأة يجاهر به أمام القائد. لم أصدّق حين أسرّ لي بذلك. أوضح: كل إنسان يحتاج أحياناً إلى ما ينقصه في حياته، وأنا أعرف ما ينقص القائد منذ أن كنّا زملاء دراسة. هو لا يستطيع أن يعيش بدون أن يجد مَنْ يكشف له الهاوية التي يحفرها كل يوم، قد لا يقوم بردمها، أو التّوقّف عن حفرها، لكنه يريد أن يشعر بأنه ماضٍ فيها وإليها. "يمضي إلى الهاوية وفيها، ويريد أن يشعر بأنه كذلك، فقط. كيف؟" سألتُ أبا اليُمن. "هكذا، الشعور بالكمال المطلق هو شعور بالموت، هو اقتراب من الهاوية، بل هو الهاوية ذاتها" قال. "لكنّه يستطيع أن يُوقفكَ عن قول

رأيكَ، أن يقتلكَ" قلتُ. "هو يستطيع ذلك، ولقد قتل الكثيرين لأتفه الأسباب، لكنْ، لا يمكنه أن يقتل الجميع، وإذا قتل الجميع أو أَخرَسَهم، فإنّه سيبقى يُكلِّم نفسه، تصوَّرْ حالكَ وأنتَ تُكلِّم نفسكَ. ألن تضيق؟" أجاب أبو اليُمن.

يبدو أبو اليُمن وكأنّه شوكة التوازن لحياة القائد. ربّما يكون هناك آخرون غيره. الطّبّاخة والسائق وفاطمة ابنة الحارس الذين تحدّثوا إليّ عن وجود بعض الاختلالات في البلد كانوا يحرصون على عدم مسّ القائد بأيّ انتقادات. كانوا يعملون ذلك بخوف، وكأن فكرة قد خطرت في بالهم أنني سأكتب قصّتهم في يوم من الأيّام. ربّما أرادوا ذلك، ولكنْ، بعد موتهم. ألا يخافون حدوث ذلك بعد الموت؟ سألتُ نفسي هذا السؤال وأنا أشعر أنهم صاروا يخافون من الخوف نفسه، من كلمة الخوف نفسها.

الشّحّاذ الأعمى الذي يقف بجوار بيت الضيافة، ويدعوه أبو اليُمن عمّ عبد الله، قيل إنه مخبر. أبو اليُمن هو منْ قال هذا. كان يتحسّس يد ووجه مَنْ يقابله، ويتحدّث بحسب انطباعه عمّا لمسه أو ما سمعه من صوت. لا أعرف كيف يصنّفني، لكنني شعرتُ أنني موثوق عنده. مرّة لم يصدِّق أنني ذلك الذي صار يعرفه، وبقي يقول: لا، لا يمكن، تغيّرتَ. هل شمَّ رائحة في جِلْدي مختلفة؟ لا أعرف إذا كان يميّز، أيضاً، بالشّمّ. لم أكن قد جئتُ من عند الشيماء، ليشمَّ رائحتها في جسمي، أو من عند شخص آخر، مارستُ الخيانة معه. قناعاتي هي قناعاتي نفسها التي لا أظنّ أنه يُدركها جيّداً، وإن استخدم حواسّه كلها. أنا نفسي لم أعد أعرف ما قناعاتي. أعرف أن سماح وتوفير العلاج لها هي أهمّ قناعاتي، أمّا القَناعات الأخرى، فهي كثيرة، لكنها لم تعد مرتَّبة، كما كانت.

يتحدّثون عن النجم الكاشف، ثمّ يتناسونه، أو ينسونه، حين يصبح كلّ واحد منهم بمثابة نجم كاشف على الآخر، يتجسّس عليه، ويشي به إلى أجهزة الأمن. القائد هو مَنْ زوّج الأحمد من نوّارة، وهذا مَدعاة للفخر عندهما. هو أيضاً يخاف من زوجته كأبي اليُمن، ويشتركان في الخوف من السكرتيرة نادية. ألا يخافان منّي؟

ما هذا الهذيان؟

لم يستطع الأحمد أن يُطلّق زوجته الأولى البدوية، لأنه وعد أُمّها بالحفاظ عليها وإلى الأبد، ولكنْ، ماذا لو أمره القائد، وهو الذي يكره تعدّد الزوجات، أن يطلّقها؟! بالتأكيد سيُنفّذ. لكن هذا لم يحدث، حتّى حين اكتشف القائد أن تلك المدوّنة باسم الحالمة بموت الرئيس هي ابنته الأولى والوحيدة من هذه البدوية. ما قاله أبو اليُمن يشير إلى أن حلماً قديماً لعمّة الحالمة قد صار حكاية طويلة انتقلت إليها، فقد حلمت أخت الأحمد أن القائد سيموت بولادته، وحينها انتشر ذلك الخبر، وصار أمثولة، إلا أن الطفل الذي تعسّرت أُمّه كثيراً في أثناء ولادته لم يمت. مع هذا لم ينسَ الحلم حين كبر، فقد انتقم منها حين صار يحمل صفة القائد، حيث اختفت الحالمة تماماً، ولم يدر أحد أين راحت، بالرغم من إشاعة تداولها البعض تقول إنها تركت زوجها وابنَتَيْها، وهربت مع عشيق إلى القاهرة. وقد نفت الحالمة بعد حين، في مدوّنة لها، هذه الإشاعة، وعَدَّتْها صادرة من مخابرات القائد، لتخفي جريمته في قتلها وإخفاء جثّتها. قائلة إن هذا الحلم المجهض هو وراء إنشاء مدوّنتها الحالمة منذ اليوم الأوّل لوصولها إلى بنسلفانيا. من هذه المدوّنة، صار من الممكن معرفة أن صاحبتها كانت قد أُرسلَت في منحة لدراسة الآداب في بيروت، إلا أنها استطاعت بما جمعتْهُ من أموال أن تطلب فيزا سياحية لبريطانيا، وهناك أعلنت اللجوء السّياسيّ، لتنتقل بعدها إلى بنسلفانيا في منحة دراسية من الولايات المتّحدة، حيث صار بإمكانها أن تتجرّأ وتواصل أحلامها وتنشرها، وهذا ما لا يمكن تحقّقه في بيروت، حيث يسهل على أعوان القائد الوصول إليها.

السكرتيرة نادية كان يكفيها أن تحلم بالقائد، وأن تعيش عزباء، كما قالت لي بعد اجتماع للجنة تأليف السيرة. ما شعرتُ به هو أن نادية لم تكن صادقة. قلتُ لها إن هناك ما تخفيه، ولا أدري لماذا تسرّعتُ بهذا القول. ردّت بارتياح من كلامي، ولكنْ، بهمس: أكيد، لي حلمي الخاصّ. لا أعرف إذا كان القائد يعرف بحلم نادية أم لا. أمّا أحلام الحالمة بموت الرئيس، فبالتأكيد أنها قد وصلتْهُ، كما

وصلت إلى حُرّاسه، في الأرض والفضاء، فلم تمرّ سوى أيّام من حديث الشيماء عن المدوّنة حتّى صار من الصعب الوصول إلى المدوّنات التي لم تكن قد حُجبَت في بلاد القائد.

هل قام المعتزّ بذلك؟ أم أن القائد هو الذي أمر؟

لم يكن هناك إنترنيت في بيت الضيافة، وعرفتُ من نادية أن الإنترنيت غير متاح للجميع "يدخلونه، فقط، في المقاهي والدكاكين بعد تسجيل البطائق الشّخصيّة والمواقع المطلوبة". سماح لم تكن مهتمّة بالنت، حتّى إن صفحتها على الفيس بوك أنا مَنْ أنشأها لها. لم تهتمّ حتّى بأخذ كلمة السّرّ للدخول، واللابتوب الوحيد الذي كنّا نملكه كنتُ أعمل عليه في كتابة الروايات.

"لا يتجرَأ أحد مع هذه الإجراءات أن يذهب إلى مقهى نت، ويُسجِّل أنه سيفتح مدوّنة الحالمة بموت الرئيس. أحدهم عملها، وتطاول على القائد" قالت نادية، "تجرّأ بعد حجب المدوّنات، وذهب إلى مقهى نت. سجّل أنه سيفتح مدوّنة الحالمة، لكنه لم يصل إلى مبتغاه، لبطء خطّ الاتّصال. اختفى منذ خروجه من المقهى الذي عوقب صاحبه، لأنه لم يستعجل في البلاغ عنه، إذ إن المخابرات عرفت بطريقتها الخاصّة، وهي طريقة من الطُّرُق، التي لم تعد تُتيح لأيّ واحد أن يتهاون بأداء واجبه الثّوريّ ضدّ أعداء الثورة وقائدها".

المؤرّخ المُحبّ يبدو في تصرّفاته كلها منسجماً مع ذاته، وواضحاً في ولائه. وقد تزوّج من تلميذته النابهة في دراسة أسس تكوين العائلة السعيدة المستلهَمَة من فكر المُلهِم. كان تخصّصه بتاريخ القائد محلّ اهتمام الجميع، فدراساته وأبحاثه دائماً تحمل الجديد واللافت، كما تشير رسائل الماجستير والدكتوراه التي يشرف عليها، أيضاً، إلى ذلك، وهي الرسائل التي صار عليّ أن أقرأها، لتستكمل معلوماتي عن القائد، أو بالأصحّ تزداد معلوماتي، فقد صرتُ أعرف أن معرفة حياة القائد كلها غير ممكنة التّحقّق، إذ إن هذا، أو القول بهذا، يعني النظر إليه، مثله مثل أيّ شخص، أو مثل أيّ رئيس وملك، فيما هو أكبر من هذه

الصفات والمسمّيات كلها.

الرسائل الأكاديمية التي رأيتُها تناقش: الفكر الاقتصادي للقائد وابتكاراته لإغناء البشر، منهجه العالمي في توحيد البشرية، الأسرة كما يريدها القائد، الحلّ المبتكر لمشكلة الماء، الفكر الكهربائي للملهِم: أو كيفية تحويل النهار إلى ليل، والعكس، المَرجوّ من العالمين. انتبهتُ إلى وصف القائد بالمَرجو. رأيتُ، بالنسبة إليّ على الأقلّ، أنه كذلك. فهو المَرجوّ، من أجل أن أحصل على مال، لأعالج زوجتي، وأتجاوز حال الفقر، وأكتب بعدها، بدون قلق معيشي، الرواية الأهمّ التي أرجو إنجازها.

رجوتُ سماح قبل أن أغادر أن تتسلّف أيّ مبلغ؛ أكّدتُ لها: أيّ مبلغ، لتتعالجي به، وأنا سأقضي السلف كله حين أعود.

لم تكن سماح تتسلّف سوى لي، من أجل إنجاز الروايات. كنتُ قليل الاهتمام بها، بسبب انشغالي في الكتابة، مع هذا كنتُ آمل دائماً أن أُعوّضها في يوم من الأيّام. مرّة أهديتُها جزمة بدلاً من جزمتها المقطّعة والمخيطة، لكنني شعرتُ وقد صرتُ بعيداً عنها أنني لم أقم بهذا إلا من أجل أن تستطيع الذهاب بجزمة لائقة إلى صديقاتها، لتتسلّف لي. أهديتُها، أيضاً، جهاز موبايل بدل تلفونها المهلهل. في الحقيقة، أهديتُها إيّاه، كما أهديتُها الجزمة، بدون أيّ قصد أو مصلحة، إلا أنني لا أستطيع التّخلّص من الشعور بأنني لم أكن أقصد سوى فائدتي الشّخصيّة، فالتلفون هو أيضاً استُخدم في متابعة مَنْ يسلّفني عبرها بعد أن صار جهازها السابق كثير العطل، ولا تقبل النسوة اللواتي يسلّفنني عبرها، المجاوبة على رَقْم غير معروف لهنّ كرَقْمي، إذ لا يجوز، كما يعتقدنَ، لامرأة أن تجيب على رَقْم غريب، قد يكون صاحبه رجلاً.

يا لها من ليلة طويلة بالأرق، حاولتُ أن أنشغل بالكُتُب التي أعطوني إيّاها من مكتب التوجيه حول القائد، أكوّن فكرة عن بعض جوانب حياته. لقد تناولتْ كلّ شيء بما في ذلك أكله وشربه وملابسه وتنفّسه ونومه.

ما يحكيه أبو اليُمن لا يتطابق مع ما جاء في الكُتُب. أنا الثاني،

ربّما بعد القائد، الذي أسمع منه ما يقوله. هل فعلاً يقول ما يقوله للقائد؟

ليس هذا هو ما يهمّني. المهمّ بالنسبة إليّ هو كيف أجد طريقة مقنعة لكتابة السيرة، وأتخلّص من هذا العبء. أبحث عن طريقة مُثلى لتخليد المبجّل، نعم، المبجّل، صفة جديدة فكّرتُ أن أُطلقها عليه، أُنفّذها، شكلاً وكتابة، على هيئة عقد، له مُسمّيات فصوص أحجار كريمة كتلك التي في كتاب العقد الفريد لابن عبد ربّه الأندلسي، لكنني أريدها أكثر من خمس وعشرين فصّاً. فكّرتُ أن يحتوي العقد على تسع وتسعين فصّاً مثل عدد أسماء الله الحسنى، تحمل أسماء تعظيم للقائد، وأن يكون في أحد جوانب العقد خمسون فصّاً، وفي الجانب الثاني تسعة وأربعون، والرَّقْم مئة يكون في وسط الجوهرة، ويحمل اسم الله الذي يحرسه ويؤيّده ويباركه. أليس هذا ما قرأتُهُ في الكُتُب، عن علاقته بالله، وإن كان في إشارات قليلة؟

ولكنْ، ألا يُعزِّز هذا من تسلّطه؟

وما علاقتي بالأمر؟ في الأخير هذه ليست بلادي، ولكنْ، ألستُ إنساناً أممياً؟ ألم أكن منتمياً إلى هذا الفضاء اللاحدودي؟ أليس ما أعمله، ولو في التفكير، خيانة لنفسي؟ أم أن نفسي لم تعد كما كانت؟ ما أخونه، ربّما، هو نفسي السابقة التي لم تعد تعنيني. نفسي التي اكتسبت المجد والشهرة، ولكنها لم تغادر جدران الفقر. لم أنسَ تلك الليلة التي راحت زوجتي سماح لتتسلّف لي قيمة لفّة الكيف، لأعالج من الاكتئاب، وهي المحتاجة أكثر منّي لقيمة علاج. بدأت تشتاق لضحكي، فأعلنت: لا يجتمع المرض والتّجهّم، الفقر والتّجهّم، فاجتماعهما يعني الموت.

تخفّفتُ من الاكتئاب مع مجيئي إلى هذا البلد، لكن القلق الذي لا علاج له بقي، القلق على سماح والقلق من القائد وابنته، القلق من الآخرين بعد أن تلقّيتُ جرعات كثيرة من التحذير والتخويف، وما لا أؤمن به من قبل. أصوات متضاربة في رأسي، لم يُوقِفها سوى صوت مؤذّن الفجر، الذي يأتي عبر الميكرفون من المسجد

المجاور، ثمّ صلاة وتلاوة إمام المسجد، الذي ذكّرني بإمام مسجد حارتنا في القاهرة، ونومي على صوته بعد سهري مع الروايات، لكن دعاء هذا في الأخير، أن يحفظ الله القائد باني عِراسوبيا العظمى وقائد الجماهير إلى المجد، أعاد لي الأرق من جديد، ولم يكن لي إلا أن أُرتّب خربشات التّصوّر من جديد لكتابة سيرة المبجَّل، وأنتظر مجيء الصباح، لأتناول الفطور، ثمّ أذهب إلى المكتب، وأجلس أمام نادية منتظراً أعضاء اللجنة، لأعرض عليهم ما جادت به قريحتي لكتابة السيرة.

فصّ المُبجَّل

-١-

بدا لي القائد وكأنّه أدرك أن المقترح الأساس لكتابة السيرة عُمِلَ من قبلي، مع أنه قُدِّم له باسم اللجنة في أثناء مقابلتنا له مجدّداً بحضور محمّدين.

شكرني على فكرة عنوان السيرة "العقد الجُمان في سيرة المبجَّل الهمام"، وضحك، قبل أن يشيد بصفة المبجَّل. كان المُحبّ قد قال إنه يفضِّل أن يكون العنوان: "العقد الفرد في سيرة المُلهِم الأحد معمِّر الدِّين والدنيا وسائس الناس"، وهو ما اقترحتُهُ سابقاً، لكنني تراجعتُ وقلتُ له إن هذا العنوان طويل، وقد لا يُفهَم.

أمر القائد باعتماد صفة المبجَّل فوراً بوسائل الإعلام، ووجّهنا أن تكون أسماؤه أو صفاته في فصوص العقد، على غرار المبجَّل. "فكِّروا" قال، في إشارة إلى أنّه يريدنا أن نُغيِّر ما كنّا قد توصَّلْنا إليه، أو أنه يريدنا أن ننتظر ما سيقوله هو لنا، ما سيُلهِمنا به على الأرجح. ولم تمرّ سوى لحظة صمت قليلة حتّى وجَّهنا بأن يكون العقد من مائة فصّ وفصّ. وهنا انفتحت أساريرنا على هذه الفكرة الكبيرة. قلتُ إن هذا سيلغي الإشكالية التي كنّا سنواجهها في تقسيم الفصوص التسعة والتسعين على النصفَيْن، ويكون الاسم الوسط متمّم للمئة، كما أن الرَّقْم الجديد يعني أننا نكتب سيرة يفوق صاحبها رَقْم مئة، وهو رَقْم الكمال في العادة والتقليد، وهكذا سيكون في المنتصف الفصّ المئة وواحد، ويحمل أهمّ الصفات كاسم أعظم، كجوهرة نادرة.

لو لم أسمع ما قاله المبجَّل لما صدّقتُ أن لديه القدرة على التفكير على هذا النحو، خاصّة وقد أضاف أن يكون كل فصّ في مائة كلمة، والاسم الأعظم في مائة كلمة وكلمة، وهو ما لم أفكّر به، إذ رأيتُ أن كل فصّ يمكن أن يمتدّ بعدد صفحاته حسب ما يقتضي جزء السيرة، ولم يخطر في بالي أن القائد، وبهذه السرعة، لديه من البداهة لتحديد عدد كلمات كل فصّ، وهو حجم مناسب

لقـراءة الكتـاب فـي عصـر السـرعة، عصـر الفـيس بـوك وتويتـر وأنستغرام، وإن لم يعرفوا في بلاد القائد، لا عصر ابن عبد ربّه الأندلسي وكتاب العقد الفريد. إنه مبدع أديب، وليكن أحد أسمائه في العقد: البديع.

بقي القائد يستمع إلى الصفات، أو التسميات التي بادر الحاضرون باقتراحها، لتُزيِّن كل فصّ:

الحُلم

المُبجَّل

المرجو

المُلهِم

الهمام

القائد

المناضل

الثائر

الزعيم

العارف

الوعد

المخلَّد

البديع

الجلال

المضيء

المبهج

المُخيِّم

المُغيِّر

الكُل

الحل

الرّبّ، وهنا حرص على أن ننوّه إلى أن الرّبّ تجيء كقولنا: ربّ البيت أو ربّ الخيمة، لكي لا يظنّها آخرون مرادفة للإله.

ممّنْ يخاف؟ لا شكّ أنّ هناك ما يخيفه، فإذا كان قد تكتّم بعد أن أمر بعدم استخدام عبارة صلّى اللّه عليه وسلّم قرين اسمه، فإنّه أيضاً يخشى أن تذهب التفسيرات لكلمة الرّبّ بعيداً. هو يخاف الناس؛ ومَنْ غيرهم؟ هو لا يخاف الله بالتأكيد، وإلا لما حاول الاقتراب من صفاته، بل واستخدم مرادفات لصفاته نفسها، إذ لم يكن قد تجاوز هذه الصفات عالياً عالياً.

تفحّص أسماء الفصوص المقدَّمة من قِبَلنا، وغيَّر في بعضها، وشرح جوانبها، لكنه، ما إن وصل إلى رَقْم اثنَيْن وثلاثين، حتّى بدا على تصرّفاته الملل، إذ تكرّرت صفات، لم يستسغها على نحو: العدل، المتحقّق، المحبوب، الملاذ، المعلّم، الأب، الإنسان، المؤمن، التاريخ، الكبير، الفذّ. وهنا قال: كفاية، نلتقي بعد أن تكونوا قد أكملتُم الإعداد لها، وصياغة بعضها. "لنقرأها ونناقش الإعدادات المنجَزَة والتسميات إلى الخمسين، ثمّ لنحدِّد الاسم الفصل، الاسم الأكبر، أكبر من المبجَّل" أضاف مقهقهاً، ولكنْ، دون أن يزيح الكآبة عن ملامح وجهه، "ونسمّي الفصوص الخمسين الأخرى لتكتبوها". لكنه لم يتركنا حتّى كتبنا فصّاً، ليكون نموذجاً نهتدي به، وأن يكون اسمه الحلم.

كل واحد منّا قدّم مقترحه لصياغة الفصّ، وبدؤوا بالاستماع إلى ما كتبتُ:

"ولم تحلم البشرية من قبل، ولن تحلم من بعد بسواه..."؛

ولم يتركوني أن أُكمل. بالأصحّ بدأ القائد بالسؤال: لماذا بدأتَ بـ

و؟ فصمتُ عن الإجابة لبرهة حتّى تداول الحاضرون الآراء حول الواو هذه، ووصل القرار بهم إلى أن تُحذَف. ربّما، ظنّوا أن هذا هو، أيضاً، رأي القائد، إلا أن القائد لم يقل شيئاً، وبقيتُ محتاراً: ماذا أقول؟

وجاءت الفكرة: "هناك سبب أدّى إلى استخدامي حرف واو في بداية الفصّ، لكنْ ... لكنْ، لتسمحوا لي، لن أستطيع أن أُفصح بهذا السبب. يمكن أن أُفصح به للقائد وحده". وهنا أشار إليهم القائد أن يغادروا الصالة التي كنّا فيها.

"أردتُ أن أقول إنّكَ قديم وحديث؛ هذه الصفة لا تقال لغير اللّه. اسمح لي، أيّها القائد، إذا كنتُ أخطأتُ ... هذا رأي الفلاسفة في الكائن الأبدي الذي ليس له بداية ولا نهاية ... اسمح لي إذا رأيتُكَ هكذا ...". وهنا رأيتُ ابتسامة على شَفَتَيْه، ابتسامة حقيقية، تبعتْها ضحكة خافتة، ثمّ أشار إلى عودة مَنْ كانوا معنا إلى مجلسه.

"يُعتَمَد حرف واو في بداية الفصّ، وتُصرَف مكافأة مضاعفة للكاتب كتلك التي أُقرّت له من قبل".

هل يمكن أن أصبح مقرّباً لرجل سلطة على هذا النحو، وأنا الذي حرصتُ طوال عمري أن أبقى بعيداً عن ما كنتُ أسمّيه الوباء؟

لقد صرتُ جزءاً من الوباء، بل الوباء نفسه. ألم أقم بصياغة عبارة تعظيم وتقديس، غير مسبوقة، لرئيس بلد، يعدّه معظم العالم ديكتاتوراً حقيراً؟ لقد صرتُ أنا الحقير، وليس هو، أنا الروائي المثقّف المناهض لأشكال التّسلّط كلها. ولكنْ، ماذا ينفع التّحسّر؟

لقد سقطتُ، وعليّ أن أعترف بأنني صرتُ لا شيء، كما السلطة التي كنتُ أنظر إليها دائماً باعتبارها لا شيء.

-٢-

حاولتُ أن أتهرّب من تكرار دعوات الشيماء، والتي صارت شبه يوميّة، لكنّي لم أستطعْ سوى مرّة واحدة حين قلتُ إنني مصاب

بأنفلونزا حادّة. أرادت أن ترسل لي أهمّ الأطبّاء في البلاد. قلتُ لها إن شرب الليمون مع الشاي هو الدواء الشافي لمثل هذه الحالة عندي، لأنني لا أطيق الأدوية الكيماوية. لم تقتنع، وأرسلت لي بمعجّنات شعبية من الأعشاب والعسل قالت إنها أفضل دواء.

شعرتُ بعد ساعات من تناولها بطاقة جنسية هائلة. يا لهذه المحنة! يبدو أنني جئتُ إلى مهمّة أخرى غير كتابة السيرة. أليست هي مَن اقترحت اسمي؟

لا أدري ماذا أعمل مع هذه الطاقة المشتعلة والمفاجِئة؛ وفكّرتُ أن أذهب للحديث مع نساء بيت الضيافة، إذ من الصعب أن أقول للشيماء إنني شُفيتُ بهذه السرعة.

لم أرَ أمامي حين نزلتُ من جناحي في الطابق الأعلى سوى نازك. قلتُ لها إن وجبة السمك التي تناولتُها قبل أيّام كانت رائعة، وأتمنّى أن تطبخها لي مرّة أخرى. رحّبت بطلبي، فزدتُ، وطلبتُ منها أن أمكث معها، لأعرف كيفية تحضيرها وطبخها. وسرعان ما بدأتُ في طرح أسئلتي، عن طفولتها وشبابها، التي لم تتراجع في الإجابة عليها، لكنْ، ما إن بدأ الحديث يقترب من شخص القائد حتّى راحت ترفع صوت المذياع الذي كان يردّد أغانٍ ثورية.

بدت نازك في لحظة توتّر وهي تسترجع ذكرياتها، وبالذات ما حدث في ذلك النهار الفاصل في حياتها: "يومها كنتُ من بين ثلاثمائة طالبة من مستوى ثالث ثانوي، كدفعة أولى، تمّ جمعنا عبر اللجان الطّلائعيّة في المدارس، لنأتي إلى اجتماع، لا نعرف مع مَنْ. في قاعة كبيرة وبعد أن انتظرنا أكثر من ساعة، فوجئنا بالقائد يدخل وسط تصفيقات مرحِّبة به، ومعه دخلت العشرات من مرشدات الطلائع وأمينات السّرّ.

افتُتح اللقاء بكلمات من المنظِّمات اللواتي كنّ يبجّلنَ القائد عالياً، ثمّ قدّمنَهُ، ليبدأ في توجيه تعليماته الطّبّيّة لنا، حيث ركّز بشكل أساس على شرح مضارّ سرطان الثدي معلِناً في الختام ما اعتبره مفاجأة وهو أن مركز القائد للأبحاث الطّبّيّة قد توصّل بتوجيه ورعاية منه إلى اكتشاف علاج يقهر هذا المرض، وأنه أراد أن

يعلن عن هذا الاكتشاف أمامنا، باعتبارنا نساء المستقبل، ليقول لنا إن أثداءنا في مأمن. صاحب الفنيّون حديثه بعرض صور مكبّرة لأثداء عبر جهاز بروجيكتور، إلى أن وقفتْ في النهاية واحدة من قائدات الطلائع، وقالت إنها ترجو من القائد، باسم الحاضرات كلهنّ، أن يقوم بلمس صدورهنّ بيده المباركة حتّى يشعرنَ بالأمان من الأمراض. فوجئتُ يومها بهذا الطلب، كما رأيتُ المفاجأة نفسها في وجوه وعيون معظم الحاضرات. وجدتُني مضطرّة كما الأخريات أن أمرّ من أمامه، وأعرض صدري ليلمسه". توقّفت نازك، وراحت تتأكّد من أن صوت المذياع في أعلى درجاته، وهنا فهمتُ أنها كانت تريد بصوت المذياع أن تُشوِّش على أيّ جهاز تنصّت، قد يكون موضوعاً في المطبخ.

"وقف القائد على المنصّة، ووهبنا بيده البركة والصّحّة"، وبانت ابتسامة خفيفة على شَفَتَيْها، وإذ صمت المذياع لبرهة، صمتت معه، لتعود مع صخب أغانيه: "حدث يومها ما لم يكن بالحسبان. تمّ اختياري مع عدد من الفتيات لنذهب لمقابلة القائد بشكل خاصّ. قيل لنا إننا محظوظات بحصولنا على مكرمة لقائه دون الأخريات. لا أستطيع أن أخبركَ بالتفاصيل أكثر من هذا، لا أستطيع. يقال إن هناك طريقة سرّيّة جداً يعرف مرافقوه أن القائد مهتمّ بفتاة ما، فيقومون بأخذها إليه، وبأيّ وسيلة".

كان حديث نازك كفيلاً بتثبيط رغبتي المتأجّجة، شعرتُ بغضب ممّا قالتْهُ ولم أطلب منها تفاصيل أكثر. لقد كانت خائفة، وبدا عليها الندم بعد أن باحت لي بأحد أسرارها. طمأنتُها بأنني لن أفشي سرّها لأيّ أحد مع أنها لم تطلب منّي وعداً بذلك أو تعهّداً، إذ بدت واثقة منّي، أو على الأقلّ، هذا ما شعرتُ به، في أثناء حديثها.

خجلتْ منّي حين طلبتُ منها تناول الوجبة معي في المطبخ نفسه، وارتبكتْ أكثر بعدما رأتْنا فاطمة ونحن نأكل معاً حين جاءت لتأخذ صحناً من المطبخ. أصرّيتُ على أن تبقى فاطمة، وتشاركنا الأكل، وحينها وجدتْ نازك الفرصة، لتتركنا سريعاً، لأنها تأخرت. بقيتْ فاطمة تتناول لقيمات صغيرة معي على استحياء.

كلّما وجّهتُ إليها سؤالاً، تلفّتت كثيراً، ولم تقل شيئاً. بدت أنها أكثر خوفاً من نازك، وكأن هناك مَنْ يراقب أصواتنا وحركاتنا. أشارت إليّ أنها ستذهب بالصحن إلى عائلتها، وستعود.

مسكتْ بيدي، حين عادتْ، وقادتْني بصمت إلى سطح بيت الضيافة. هناك رفعت رأسها عالياً، ونظرت إلى البعيد. هل كانت تشعر بمدى حرّيّة الفضاء، لتتشجّع على البوح؟ أم أنها تخاف أن يكون هناك مَنْ يراقبها، أيضاً، في هذا الفضاء؟ قالت إن أباها وأُمّها عوّداها على تبجيل صورة القائد، إلا أنها ملّت، وذات مرّة سحبت إحدى صوره المتناثرة في الجدران، ولصقتْها على علبة منجا فارغة، مُظهِرة إيّاه على شكل بهلوان تلعب به. "ذلك اليوم أخذني أبي إلى سطح البيت، هنا، مثلما أخذتُكَ، ليُفهِمني خطورة ما عملتُهُ، وحمد اللّه أن كاميرات المراقبة، لم تكن مزروعة في زاوية الغرفة التي كنتُ ألعب فيها". بقيتْ، كما قالت، لا تستطيع أن تبوح بما بها إلا إذا صعدت إلى السطح، حتّى وإن كان كلاماً عادياً يخصّها. "المخابرات بأنواعها يمكن أن تستغلّ ما أقوله، لتبني عليه كيفية التعامل معي". أبواها متديّنان، لكن تديّنهما لم يؤثّر عليها، وبدا أن ما أثّر عليها، وقد بلغت السابعة عشرة، هو صخب الشهوة والتّطلّع لتحقيق الرغبات. أخوها محمّد عامل المقهى، الذي يجيء ليالي الجُمع لزيارة والدَيْه، ويغادر فجراً، رفض أن يُكمل تعليمه، ولم يكن يبدو أنه يفكّر بزواج أو بعائلة، حيث تُسمع مناقشاته الصاخبة أسبوعياً مع أُمّه، التي تُكنّى باسمه، حول ضرورة زواجه في كل مرّة يجيء. اندفعتُ لعناق فاطمة مؤيّداً ومعجباً بكلامها. كان لا بدّ لي أن أعمل هكذا. فما الذي يخيف؟ كيف يمكن أن أظلّ ساكناً وصامتاً أمام فتاة شابّة، تبوح لي بأسرارها، بل بأهمّ سرّ يمكن أن يقال في هذا البلد، وهو مَعصية القائد؟ امتلأتُ برائحة أنوثتها التي شدّتْني إليها حتّى كدتُ أبقى معانقاً لها دون فكاك. قبّلتُ رأسها، وضممتُهُ إلى صدري، ثمّ أجلستُها إلى جواري، لنُكمِل الحديث.

بدأنا الاعتكاف على إعداد فصوص العقد بعد أن اتّفقنا على توزيع مهامّ أعضاء اللجنة. جميعهم أقرّوا أن أقوم أنا بالصياغة النّهائيّة للفصوص، وكانوا بذلك قد لاحظوا اهتمام القائد بما أنجزتُهُ، وربّما وجّههم باتّباع ذلك دون أن أدري.

كنتُ أعمل بتحفّز كبير. لم تعقْني معه، في الحقيقة، سوى ملاحظات أبو اليُمن، تلك التي يقولها بعد أن يأخذني إلى حديقة مكتب التوجيه بعيداً عن أسماع وعيون وكاميرات المراقبة.

"هو مؤمن، ولكنْ، بنفسه" قال أبو اليُمن بعد أن ناقشنا في اللجنة الفصوص، ومنها فصّ بعنوان المؤمن. تذكّر أن القائد جمع مرّة رجال دِين، وسألهم عن المقصود في الآية القرآنية (وَإِذْ قال عِيسى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَد)، فصمت الجميع، ولم يجيبوه بكلمة، فقد أدركوا أن لديه تفسيراً آخر غير ذلك الذي يعرفونه، وإلا لما استدعاهم، لهذا قاموا يمتدحون سعة علمه ورجاحة عقله، ووعدوه بالتفكير؛ لكنه غضب، وأمر أن يضعوهم في غرف منفردة، ليفكّروا. قال إنه قرأ أن الحكمة تأتي من بدن عار وبطن جائع، لهذا أشار إلى حُرّاسه بتخليصهم من ثيابهم، وتجويعهم [أتخيّل منظر شيوخ رجال الدِّين وقد أُبعِدَت عنهم عمائهم وجلابيبهم، وخُلست ثيابهم، وصاروا عرايا تماماً]. ثمّ أمر بمجيئهم إليه بعد ليلة ونهارَيْن، قال أبو اليُمن، وهم في حالة يُرثى لها، صار بإمكانهم معها لا أن يفسّروا له بعض آيات القرآن حسب هواه، وإنّما، بإمكانهم، أيضاً، أن يكتبوا له قرآناً جديداً. وتأكيداً لموقفهم المؤيّد له اقترحوا عليه استضافة عالم دِين شهير، موالٍ له، من الخارج.

صمت أبو اليُمن وهو يحرِّك رأسه، وكأنّه يتهيّأ لقول شيء، لا يريد قوله: "كادت عينا العلّامة القادم أن تخرجا من محجرَيْهما وهو يحاول مندهشاً التّأكّد من أن القائد هو نفسه مَنْ يجلس أمامه ويقول إنه ذُكر في القرآن باسمه أحمد الذي اختارتْهُ أُمّه له، وغيّره أبوه، وأنه هو المَعنيّ بقول الآية، وليس النّبيّ محمّد. لسانه المعروف بانطلاقاته في الخطب والأحاديث التّلفزيونيّة

والإذاعيـة بـدا هـو الآخر وكأنه قد أخرِس من الدهشة، بل بـدا جسمه كلّه منفلتاً عن تحكّمه، ولم يعد يحسّ سوى برأسه وهو يتحرّك بدون سبب أو قصد. كنتُ حاضراً في هذا اللقاء، ولا أدري كيف وصلت للقائد لحظتها فكرة أن العلّامة المُخلص له، بِعَدِّه راعياً للدِّين والدنيا، أنكر، بصَمته، عليه أقواله، بل، وسخر منه، بهزّ رأسه. رفع القائد صوته غاضباً وهو يصفه بالجهل والغباء، وأمر أن يأخذوه إلى حيث أراد. وهو ما تحقّق بعد أن التقطوا عمامته التي سقطت، ولفّوها على عينَيْه ورأسه".

لم يكن أبو اليُمن يترك فصّاً من فصوص العِقد التي نناقشها دون أن يعلِّق عليه، وإن كان يقوم بذلك معي وحدي.

"بـدون خجـل، تحدّث الأحمد عن فصّ الحلم، وكأن ليس لديه ذكرى مؤلمة معه" أضاف أبو اليُمن، وأعاد بالتفصيل ما كنتُ قد عـرفتُهُ منـه: "الأحمـد خـاف أن يُعاقَب بسبب أخته التي حلمت بموت القائد، ولهذا نذر نفسه وأدبه من ذلك اليوم لتدوين حياة مَنْ يعدّه المُلهِم له، فكتب قصصاً وروايات عن بطولته وحكمته وأمجـاده، بصـفات مختلفـة، وبتعـابير مباشـرة أو رمزيـة غـير مباشـرة، اختلفـوا من المقصود فيـها الله أم المُلهِم؟ وهـي صفة القائد المفضّلة لدى الأحمد، وكانُوا يرجِّحون المُلهِم مع كل مقارنة أو اختلاف في الرؤية والفَهْم، مع أنهم، في الأخير، يجمعونهما بصفات مشتركة. ابنة الأحمد كانت عَصيّة على أن تُطوَّع لتناقش مثـل هـذي الأحـاجي، فإذ صارت في مأمن من العقوبة، اتّبعت عمّتها في الأحلام، وأنشأت مدوّنة: الحالمة بموت الرئيس".

-٤-

استغربتُ أن نازك لم تنتبه إلى احتمال وجود طريقة للتّنصّت عبر المـذياع. حـين رجعـتُ إليـها فـي اليـوم التـالي، وقلـتُ لها ذلك، ارتبكتْ وأغلقتْ صوت المذياع بسرعة، ولم تعد تنبس بأيّة كلمة. أشرتُ إليها أن تتبعني إلى سطح بيت الضيافة، لنتحدّث بحرّيّة، فلم توافق إلا بعد أن تأكّدتْ أن عمّال البيت جميعهم في الخارج أو أنهم يستريحون في وقت القيلولة. "أنا مؤمنة بالله، مؤمنة بأن

لكل شيء نهاية، مثل الموت، لا أحد يستطيع أن يهرب من الموت، حتّى وإن طال عمركَ، فإن مصيركَ هو الموت" قالت نازك. "ألا تخشين أن يطول عمر القائد، ويطول عمر أبنائه وأحفاده؟" سألتُها. "لا، كل شيء له نهاية، حتّى الدولة تموت، حتّى الأخلاق الحميدة تموت، لتأتي أخلاق أخرى. لا أحد يبقى على حاله. حتّى الحبّ يموت، إذا لم يمتْ بين اثنَيْن، سيموت كفكرة أو كسلوك" أجابت. قلتُ لها: أنتِ فيلسوفة. فردّتْ إنها تعلّمت هذا من أُمّها، "كنتُ أُشفق على القائد وهو يتصرّف بطريقة لا يمكن لأحد أن يصدّقها. حين يستدعي واحدة منّا، يحاول أن يمثّل أنه رجل، أنّه ذكر، أنّه إنسان. كان يقوم بأداء كل الحركات التي تحاول البرهان على أنه كذلك. في الحقيقة، لم يكن يبرهن في سلوكه هذا إلا على العكس، إنّه لا شيء".

عرفتُ منها أن أُمّها كانت إحدى طبّاخات القائد الرئيسات، وأنهم حين جاؤوا بها، لضمّها إلى أمينات سرّ القائد لم يكونوا يعرفون ذلك.

"لن أتحدّث عن سهراته الماجنة وعلاقته بي طوال ستّ سنوات، فذلك كله صار ذكرى، وأنا لا أحبّ تذكّر تلك التفاصيل، لكنني سأقول لكَ ما حدث لأُمّي، والذي بعده نقلوني إلى هنا للعمل طبّاخة خوفاً من أيّ سلوك انتقامي، قد أقوم به"، وصمتَتْ كثيراً، وصارت تبكي بصمت: "لم تعمل له أُمّي أيّ شيء. كانت مخلصة له، بل مؤمنة بقدرته ومكانته. نسيتْ مرّة أن تضع البهارات الحارّة في وجبة الغداء، فقامت قيامته، ولم يهدأ. أمرَهم أن يعصروا كمّيّة من هذه البهارات، وأن تشربها كلّها أمامهم عقاباً لها على نسيانها. تصوّر، شربتْ خمس كاسات منها، والتي تجلب عادة من الهند خصّيصاً للقائد". بدت منفعلة "أيّ حقارة أكبر من هذه الحقارة!" قالت بنبرة عالية وغاضبة، لكنّها سرعان ما عادت لارتباكها، وكأن ما قالتْهُ زلّة لسان. "أنا أقصد أن القائد رحيم، لكنْ، هناك مَنْ أوغل في صدره الكرهَ لأُمّي". ثمّ حدّقت بعينَيْن ممتلئَتَيْن بالدموع إلى وجهي، وراحت وهي تضع رأسها على صدري، في نحيب موجع: "قتلوها. قتلوا أُمّي ... قتلوا حياتي،

ودمّرونـــي". حــاولتُ أن أهــدّئها مـن آلام الـذكريات، لكـن جلبـة سمعناها في باب البيت أفزعتْها، ودعتْها تنزل من السطح سريعاً.

لم تمرّ سوى نصف ساعة حتّى عرفتُ سبب هذه الجلبة. لقد جاء المعتزّ، ابن القائد، وصار في أكبر أجنحة البيت المقابل للجناح الذي أسكنه.

صـافحني بعـد أن جـاء أحـد معاونيـه، وأخـذني إليـه، وبـدون مقدّمات راح يريني زجاجة خمر، وُضعت فوق طاولة. كانت على شكل وعاء كبير، صُنع بطبقات شفّافة من الكريستال المزخرف، وفي وسطه يكمن الشراب. لم يسبقْ لي أن رأيتُ قارورة بمثل هذه الضخامة والحجم. "بكم تُقدِّر قيمتها؟" سألني. "ألف دولار" قلتُ له، ولا أدري لماذا نطقتُ بهذا الرَّقْم، وبهذه السرعة. ضحك كثيراً قبل أن يقول: "يا رجل، هذا الرَّقْم ليس حقّ تكلفة الطلب فقط، فما بالكَ بتكلفة حمولتها وغلافها، وقبل ذلك تكلفة ما فيها من شراب، لا يستطيع الوصول لمثله أكثر من مائة شخص. هذا خمر عُمل خصّيصاً لأشخاص معيّنين، وتقول لي ألف دولار".

هززتُ رأســـي مبتسـماً كعلامـة علـى تفـهّمي واعتـذاري لعـدم معرفتي. راح بعدها يقدّمني، بصفتي ضيفاً كبيراً في بلاد القائد، إلى الفتيات اللواتي اصطفّينَ كحارسات شرف في استقبالي. "أنا ميمي"، "وأنا سوسو" وما إن سمعتُ اسم هذه الأخيرة، أو اسم الـدلع الـذي ينادونـها بـه، حتّى راح بالي إلى سماح، حيث كنتُ أناديـها هكـذا، إذا مـا كـان مزاجـي رائقاً، ولم أعد أنتبه لأسماء الأخريات اللواتي قدّمنَ أنفسهنّ لي بأسماء هي، على الأرجح، أسماء دلع.

دخل أحدهم إلى الجناح وبيَدَيْه آنية، فيها سبعة كاسات ممتلئة بالشـراب، علـى عدد الفتيـات السّتّ والفنّان سمير، عـازف العـود الشّابّ الذي بدا أنه سيُصاحبنا خلال السهرة. كان المعتزّ قد فتح زجاجـة الشـراب الفـاخرة بطريقة فنّيَّة ومتأنّيـة، وصبّ لـي فـي كأس منها، كما صبّ لنفسه كأساً أخرى.

توقّعتُ أن يأتي لزيارتي في جناحي، لنتحدّث عن أمور ما، ولم

أدرِ أنّه كان يقصد أنه سيأتي للسهر معي في ليلة، أعدّ لها وسائل اللهو كلها. مع هذا ما إن بدأ المعتزّ يرتشف كأسه حتّى راح يتحدّث عن الدّيمقراطيّة المزيّفة وتضليل الشعوب باسم حرّيّة التعبير وحقوق الإنسان، قبل أن يأتي الشخص نفسه الذي جاء بالكاسات السابقة، وبيده مثلها، ليناولها الحاضرين. ثمّ راح إلى جوار الزجاجة الفاخرة، لتتبعه إحدى الفتيات التي أشار إليها، وأعطاها كأسَيْن، لتقدّمهما إليّ وإلى المعتزّ. وفيما كنتُ أواصل ارتشاف الشراب والاستماع إلى حديثه كانت الفتيات، في الزاوية الأخرى، يكركرنَ ضحكاً وغنجاً بينما الفنّان سارح البال وكأنه ليس بيننا. انتبه المعتزّ إلى ضحكاتهنّ، وأشار بيده إلى الفنّان، ليبدأ في الغناء.

شعرتُ أن الخمر سيأخذني إلى عوالم لا تُحمد عقباها. لذا بدأتُ في التظاهر برشف الكاس دون أن أشرب منه.

قام الفنّان، كما بدا لي، بأداء أُغنيّة فلكلورية محلّيّة، صاحبتْها رقصة من قِبَل الفتيات بملابس تقليدية ذات ألوان حمراء وبنفسجية. وما إن أكملوا حتّى دخل ثلاثة شبّان، يحملون آلات رقّ وطبلة وكماناً فيما قامت الفتيات بتغيير بعض قِطَع ملابسهنّ من حقائب صغيرة متروكة في جوارهنّ، إذ صار من المؤكّد من خلال مظهرهنّ الجديد أنهنّ سيقمنَ بأداء رقصة شرقية مع مصاحبة آلات الموسيقيّيْن الثلاثة، إضافة إلى العود.

وجدتُني منبهراً بأداء رقصهنّ بطريقة بدت لي مبتكرة، مع أنني من بلاد الرقص الشّرقيّ، وأعرف أكثر خباياه وأنواعه. لهذا لم أنتبه إلا وقد صار كأسي خالياً من الشراب ممّا دعا بالمعتزّ إلى أن يشير إلى معاونه بأن يصبّ لي وله من القارورة إيّاها.

بقيتُ أهتزّ منتعشاً لما أسمع وأرى، وكدتُ أصفّق، لولا أنني خشيتُ أن يُغضِب ذلك ابنَ القائد الذي كان مشخصاً تجاههنّ بابتسامة عريضة.

بعد الكأس الرابع، ازدادت الابتسامة اتّساعاً، وتحوّلت إلى الأصابع، حيث صار يعبث بها أجساد الراقصات، حين يمررنَ من

أمامه بخلاخيلهنّ الراقصة. كان يتناغم ويهتزّ بشكل لم يعد فيه أيّ وقار، ممّا عرف عن رجال السلطة في الظاهر. بل زاد في لهوه بأنـه كـان يمدّ يده ليلمس الأعضاء المتكوّرة حين يحرّكنَها متفاعلات مع إيقاع الرقص، فيصدر عنهنّ ضحكات غنجة مع ابتعادهنّ قليلاً، باستثناء واحدة، بقيت تهزّ وسطها في القرب منه فيما هو يذهب، بأصابعه، بعيداً.

لم يستمرّ الحال هكذا، فقد جاء أحدهم، ووشوش في أذن ابن القائد الذي رفع رأسه مندهشاً: "عملوها أولاد الكلب"، قال بصوت صارخ حوّل ابتسامات الراقصات والعازفين إلى فقاعات من الدهشة الكئيبة. ومرّت لحظات من همهمات، لم أعرفها، توقّفت معها أجواء المرح، وغادر العازفون والراقصات، وقاموا بتشغيل شاشة تلفزيون كبيرة على الجدار.

صار من الواضح أن هناك خبراً مهولاً، وهو سقوط نظام رئيس بلد حليف بعد أعمال عنف ومظاهرات كبيرة، طالبت بإسقاط النظام وتنحّي الرئيس، حدث بات معه ابن القائد، كما يبدو، يخشى عن مصير سلطة أبيه، أو مصيره هو ربّما.

بقيتُ صامتاً، ولا أدري ماذا أقول، فأنا منذ أن وصلتُ إلى بلاد القائد، قبل ثلاثة أشهر، وأنا معزول عن أخبار العالم وأحداثه كلها. المعتزّ بقي يتحدّث كثيراً عن أسلوب حكم الشعوب، وكيف تحكم الشعوب نفسها بنفسها، كما هو الحال في بلاده. بدا مرتبكاً على غير ما رأيتُهُ في المرّة السابقة، كان يتنقّل بالريموت كنترول بين قناة تلفزيونية وأخرى، في الوقت الذي يتحدّث فيه بتلفون نقّال، وأحياناً يطلب من معاونه أن يساعده في تغيير القنوات. "هؤلاء أدوات بيد المخابرات الأجنبية، ينفّذون خطط المتآمرين على بلدانا. هم مرتزقة. شاهد بعينَيْكَ كيف يخصّصون لهم هذا الوقت كله في قنواتهم التّلفزيونيّة. لا يحترمون مبدأ عدم التّدخّل بالشؤون الدّاخليّة" قال بصوت مرتفع، قبل أن يصمت، ثمّ يضيف "الدّيمقراطيّة لعبة وسخة، تسمح بوجود الهمج والغوغاء. نحن لن نسمح، لن نسمح لهم هنا في بلاد القائد، سنقضي على مَنْ يحاول أن يقلّد الآخرين".

وإذ عاد العازفون والراقصات بإشارة منه، لم يعد ينتبه أو يُنصت إليهم كما كان، حيث بقي يتابع ما يُكتَب من أخبار عاجلة أسفل شاشات التلفزيون المكتومة الصوت، وهو حال امتدّ إلى وقت تناول العشاء، فقد كان غير منتبه لما يأكل، وظلّ يضع أمامي قِطَع لحم كثيرة، لا يمكنني أكلها، ولو حاولتُ لمدّة شهر.

-٥-

الأحداث المتسارعة في الدول المجاورة كان أثرها واضحاً عند كل مَنْ أقابلهم. بقيتُ أُسرع في اقتراح إعدادات فصوص السيرة، فرحّبوا بذلك. المبجَّل كان أسرع منّي في طلبه، ولم يتح الوقت الكافي، واستدعانا بعد أسبوع، لنقرأ له ما أنجزناه من فصوص. كان لدينا ثلاثة فصوص جاهزة، بما فيهم الفصّ الأوّل الحلم الذي سبق وسمعه، إضافة إلى تسعة وعشرين فصّاً، كانت موادّهم شبه جاهزة، وأحدهم وهو الرَّقْم ثلاثون، ليس فيه غير عشرين كلمة.

طلب منّي القائد أن أقرأ النصوص المنجَزة وغير المنجَزة بصوتي، وقد رأيتُهُ منبسطاً وهو يسمع فصّ المبجَّل الذي يُظهِر احترام العالم له، الأديان والثقافات والأجناس كلهم.

بعدها أقرّينا أسماء الفصوص الأخرى إلى الرَّقْم خمسين، وطلب منّا أن نعيد إعدادات الفصوص التسعة والعشرين شبه المنجَزة بشكل أفضل، وأن نأتي بعدها إليه، لنبدأ بما يليهم. لم يعد هناك من وقت لنتحدّث عن الفصّ الأعظم المئة وواحد، وفصوص النصف الآخر، بالأصحّ وقت المبجَّل هو الذي لم يسمح، إذ نادى على إحدى أمينات السّرّ، مع إشارة، بدا للحاضرين معها أن اللقاء انتهى.

حين عدتُ إلى البيت كان عذري للشيماء التي اتّصلتْ بي، وطلبتْ منّي أن أجيء إليها هو أن القائد كلّفني بكتابة أجزاء من السيرة في أسرع وقت، وبالتالي لا أستطيع الذهاب إليها، لكنها لم تقبل العذر، وقالتْ تعال لأراكَ، ولو ساعة واحدة "اشتقتُ إليكَ".

لستُ مخيَّراً، أو حرّاً، لأرفض طلبها. أصرّتْ أن آكل بعض المقبّلات الغذائية على شكل شُربة، على الرغم من قولي لها إنني شبعان جداً. خشيتُ أن تحتوي الشُّربة على بعض الموادّ المثيرة للرغبات، وهو ما حصل، إذ وجدتُني ملتاعاً ومتلهّفاً إليها، لكنْ، وبالرغم من ذلك، وفي لحظة مزاج لم آلفها من قبل، تمالكتُ نفسي، وبقيتُ أبتعد عنها فيما هي تتقرّب منّي محاولة أن تفتنني بملابسها وعطرها. قمتُ وطلبتُ منها أن تستدعي السائق حالاً، ليُرجِعني إلى بيت الضيافة. "القائد لن يغفر لي تقصيري في إنجاز ما طلبه منّي" قلتُ. لكنها التفتتْ إليّ بوجه غاضب، وأدركتُ، ربّما، أنني خلقتُ عذراً، ليس إلا من أجل أن أتهرّب منها، ولا أحقّق لها رغبتها. "اللعنة عليكَ وعلى القائد" قالت غاضبة وهي تبدو في حال يُرثَى لها.

في البيتْ، سألتُ نفسي لماذا قمتُ بهذا التّصرّف؟ ولم أستطع الإجابة. كان، ربّما، محاولة أخيرة لإثبات وجود الذات واستقلالها. ولكنْ، هل كان عليّ أن أقوم بذلك؟ ألن يفسد هذا التّصرّف كل ما جئتُ من أجله. وهو الحصول على مبلغ مالي، أعالج فيه سماح، وأعيش منه بشكل يليق بإنسان؟ ولكنْ، هل عليّ أن أقوم بما أعمله من أجل ذلك؟ هل يلزمني أن أتخلّى عن ذاتي، عن حرّيّتي لأكون إنساناً؟ ما هو الإنسان إذا لم يكن ذاتاً وحرّيّة؟ أعرف أن هذه الأسئلة صارت متأخّرة، ولم يعد لها معنى، وقد تورّطتُ بما فيه الكفاية، ورطة لا فكاك منها. صرتُ، مع هذه الورطة، أفكّر، فقط، كيف يمكنني أن أتّصل بالشيماء، وأعتذر لها.

-٦-

حين طلبتُ من السائق شاكر أبو الحُسن أن يُوصِلني إلى البيت الكبير، حيث تسكن الشيماء، قال لي: أنصحكَ ألا تذهب في هذا الوقت الحرج. استغربتُ، وبقيتُ أنتظر توضيحه إلا أن الحارس عبد السلام الذي كان يقف إلى جواره هو مَنْ أوضح: الدنيا ثورة، أحسن لكَ أن تجلس في مكانكَ حتّى تحصل على طريقة، لترجع فيها إلى بلدكَ.

فوجئتُ بما قاله، فدعاني إلى أن آتيَ لأشاهد التلفزيون في سكنه عند مدخل بيت الضيافة. قال إنه اشترى لاقطاً تلفزيونياً، يُصنَّع بالسّرّ، وصار بإمكانه أن يشاهد الكثير من القنوات الفضائية. وجدتُ زوجته أُمَّ محمّد تشاهد التلفزيون، ولم تنتبه لدخولنا حتّى سمعتْ نحنحة من حلق عبد السلام، فاعتدلت، وغطّت شَعْر رأسها بمنشفة كانت بجوارها. هذه أوّل مرة أراها، وبدت مرتبكة، لكنها لم تتزحزح من مكانها، ورحّبت بي بكلمات محلّيّة.

"هذا المعتوه يهدّد أنه سيدخل إلى كل بيت" قالت وأشارت إلى التلفزيون الذي تقول أخباره العاجلة المكتوبة أسفل الشاشة إن هناك مظاهرات عارمة في عِراسوبيا، تطالب برحيل زعيم البلاد. بقيتُ أُنصِت مندهشاً لتعليقات محلّلين وأخبار عن انتفاضات مماثلة في بلدان مجاورة أخرى. ما خشيه المعتزّ، ابن القائد، يبدو أنه قد حصل، فقد انتقلت عدوى الثورة إلى بلاده، وصار عليه أن يواجه المطالبين بالتغيير، ومنهم هذه السّيّدة الخمسينية، المتسمّرة أمام التلفزيون، التي تتابع باهتمام ما يجري، معلنة صراحة أنها ضدّ القائد الذي وصفتْهُ بالمعتوه.

هل يمكن أن يحدث هذا التّغيّر الهائل في الآراء بين يوم وليلة؟ تساءلتُ وأنا أجد هذا الاندفاع من الحارس وزوجته نحو التعبير عن كرههم للقائد. ربّما كانت بوادر الثورة قد اندلعت، في هذا البلد أيضاً، من أيّام أو أسابيع وأنا لم أعلم بها سوى أخيراً. سرحتُ أفكّر بمصيري إذا تحقّقت الثورة فعلاً. سوف أخسر آمالي كلها بالحصول على مبلغ مالي مجزٍ مقابل ما قمتُ به، وما يُنتظَر أن أُكمله. هل يعني أنني سأقف مع القائد ضدّ الثّوّار مراعاة لمصلحتي؟ سؤال رهيب عصر فكري، ووجدتُني مضطرب الذهن، إلى أن رأيتُ فجأة القائد على التلفزيون يخطب مباشرة: "هؤلاء الحشرات، العملاء، الخَوَنَة، لا يعرفون مَنْ أكون، أنا صانع هذي البلاد، لو لم أقم بالثورة، لكنتُم أبقاراً، حشرات. أنا مَنْ سمّى هذي البلاد. أعلنتُها ثورة، جمهورية، عملتُ لكم عَلَماً جديداً، أنا القائد، أنا، والآن تقولون ثورة وثوّار، على مَن؟! عليَّ أنا، أنا مَنْ حرّرتُكم، أنا مَنْ حرّرتُكم".

بالتأكيد كانت بوادر الانتفاضة قد بدأت منذ أسابيع، فنقاشات الأعضاء المكلّفين بكتابة سيرة القائد، في مكتب التوجيه، كانت تدور في الأيام الأخيرة عن الانتخابات والدّيمقراطيّة وأسلوب الحكم العادل، ولم أكن أفهم أن لهذه النقاشات دوافعها ممّا يحصل. قال الأحمد إن الشعب غير مؤهّل للحرّيّة، أمّا الدّيمقراطيّة، فهي دسيسة. "لماذا يرشّح نفسه للانتخابات الرّئاسيّة وهو ليس رئيساً، إذ هو أكبر من رئيس، في منزلة وسطى بين الله والنّبيّ؟!"، قال أبو اليُمن ضاحكاً وهو يصف القائد، حيث كان قد بدأ يتجرّأ في قول انتقاداته أمام الجميع، ولم أنتبه لذلك.

سألتُ إذا كانت فاطمة ما زالت في المدرسة؟ فجاوبني أبوها: أيّ مدرسة؟ هي الآن في الساحة تتظاهر مع الحشود المطالبة بإسقاط النظام.

فضّ الاكتمال

-١-

"لن نقبل بغير إسقاط النظام، إسقاط الديكتاتور ونظامه العفن، إسقاط كلّ شيء. دماؤنا وأرواحنا رخيصة في سبيل الحرّيّة. لن تخيفنا أيّ تهديدات. نحن أقوى منه، من هذا النظام وزبانيته الفاسدة، وسوف نُسقِطه اليوم أو غداً، سوف يسقط ويسقط ويسقط" ما إن أكملت الفتاة الشّابّة خطابها في تسجيل الفيديو المنقول بالتلفون حتّى هتف المئات من أولئك المتحلّقين حولها في الساحة: الله أكبر ... الله أكبر. الحارس عبد السلام الذي جاء ليُطلعني على الفيديو من جهاز تلفونه ردّد أيضاً: الله أكبر ... الله أكبر.

"إذنْ، هي فاطمة" قلتُ له، فأبتسم وهزّ رأسه بكبرياء وفخر: "هي فاطمة، ابنتي".

طلب منّي أن أنزل إلى بهو بيت الضيافة، حيث صار التلفزيون مفتوحاً للجميع، سواء من عمّال البيت أو من الجيران الذين يتوافدون لمشاهدة آخر تطوّرات الثورة من القنوات الفضائية المجلوبة بستلايت حديث، لم يكن متاحاً من قبل.

أُمّ محمّد لم تعد محتجبة عنّي، تبقى تشاهد التلفزيون مع الجميع، وفي الليل تبدو أنها لا تنام، إذ تخرج إلى ساحة البيت، لتدعو الله بصوت مسموع أن يحفظ ابنتها فاطمة وابنها محمّد الذي لم أره سوى مرَّتَيْن أو ثلاث، وصار كأخته من أوائل المندفعين إلى جبهة القتال.

مشاهدو التلفزيون من الجيران كانوا يتحدّثون بخوف عمّا يجري، خوفهم من بطش القائد وقَتْله لأبنائهم الذين اندفعوا مع الثورة غير مبالين بالنتائج. مع هذا كان هناك شخصان متحفّظان، ويريان أن الثورة ستقود البلاد إلى الخراب، وأن الأفضل هو الحفاظ على القائد وأمن البلاد واستقراره.

"أيّ أمن؟! وأيّ استقرار؟! شبعْنا دجلاً وكذباً. بلدنا غنية، وتروح ثرواتها إلى جيوبهم. نحن نعيش في فقر وهم يلعبون بالفلوس" ردّ عليهما عبد السلام.

ومع وجود بعض الاختلافات في النظرة للأحداث، كان الجميع يتبادلون تسجيلات الفيديوهات والصّوتيّات التي تصلهم سواء من الثّوّار أو من الموالين للقائد. في معظمها تحتوي على مقاطع من كلمات تحريضية للقائد أو ابنه المعتزّ ضدّ الثّوّار، أو كلمات وأشعار وأهازيج شعبية من قبَل الثّوّار، تسخر من القائد وتاريخه. كان هناك أيضاً قصص وتمثيليات ورسوم و أغان وطنية، وهذه الأخيرة كان يتداولها الطرفان، باستثناء تلك الأغاني التي تمجّد القائد، ويتناقلها أتباعه.

أعطيتُ بعضاً من المال الذي كنتُ تسلّمتُهُ كمصروف لعبد السلام، لكي يشتري لي تلفوناً نقّالاً، فقام بذلك مع وعد منه أنه سوف يعمل على إيجاد طريقة تُمكّنني من الاتّصال الدّوليّ، لأطمئنّ على عائلتي، منوِّهاً إلى أنه من الصعب أن أُحوِّل العملة المحلّيّة إلى عملة أخرى.

بقي التلفزيون الوطني يعيد الخطب الطويلة للقائد بانفعالاته وتوعّده وسخريته من الثّوّار. قال إن المتظاهرين عملاء قبضوا من واحد سندويتش همبرجر، وهي الوجبة الإمبريالية، "هؤلاء صراصير" كان يردّد فيما تُنكِّتُ نازك: صرصور حبّنا. مستعيدة جملة من مسرحية شهيرة. وتضيف، ساخرة، مقلِّدة صوته: أنا أعرفكم، أنتم تحبّون الهمبرجر، وملّيتُم من الفاصوليا والبيض.

كان عليّ أن أقدّم نفسي لكل مَنْ يأتي بأنني باحث في التراث الثّقافيّ لعِراسوبيا، وليس لي أيّ موقف ممّا يجري. لا أنام، حين أعود إلى جناحي، إلا بعد أرق شديد. أبقى أتساءل عن مصيري في هذه البلاد، وكيف أستطيع أن أخرج؟ وإذا خرجتُ، هل سأخرج بدون المكافأة المَرجوّة؟ هل يكفي المبلغ الذي حصلتُ عليه كمصروف أن يُوفّر العلاج لسماح على الأقلّ، إذا استطعتُ تحويله إلى عملة أخرى؟

كيف أنام، وأنا أشاهد الصور والتسجيلات المرعبة التي صار يرسل لي بها عمّال البيت الذين تناقلوا رَقْمي؟ إحدى هذه التسجيلات تتحدّث عن ذلك الثائر المقاتل الذي أجبروه أن يشهد أن لا إله إلا هو، فكان يقوم بذلك وهو يقصد بشهادته ربّه، فيما هم أرادوه أن يقصد القائد. كانوا يردّدون: "اشهدْ أن لا... إلا هو" وهم يشيرون إلى صورة القائد الملصقة على الجدار، والتي بقي يزيح رأسه بعناد عنها حتّى صوّب أحدهم الكلاشينكوف باتّجاهه، وقتله.

الحالمة بموت الرئيس التي كانت قد انتقلت من مدوّنتها وصفحتها على الفيس بوك إلى تويتر، صارت أحلامها قصيرة جدّاً. مع اندلاع الثورة، لم يعد هناك من وقت للرقباء لحجب وسائل التواصل الاجتماعي أو أنهم لم يعودوا قادرين على ذلك. في تغريداتها الأخيرة كلها، ظلّت تسخر من خطب القائد، إلا أن التغريدة قبل الأخيرة كانت: أكاد أرى أحلامي تتحقّق.

حين عدتُ صباح اليوم التالي لأرى ماذا كتبت الحالمة مجدّداً، قرأتُ في صفحتها: سأذهب لأرى حلمي هناك. ولم تعد تُغرِّد بعدها، إذ يبدو أنها اتّجهت نحو عِراسوبيا.

-٢-

في نهاية الأسبوع السادس لبدء الانتفاضة، جاء أربعة أشخاص، وطلبوا منّي الظهور في التلفزيون، لتأييد مَنْ كنتُ وصفتُهُ بالمبجَّل، والقول إني في موطن الثورة، فكيف نثور؟! وأملوا عليّ ما أقوله، فبقيتُ محتاراً بماذا أُجيبهم. قالوا إنهم سيأتون غداً لأخذي إلى مبنى التلفزيون، لكن مجموعة من الحاضرين اعترضوا على هذا الطلب، وأعلنوا: قائدكم انتهى. وتطوّرت المشادّات إلى معارك بالأيدي، تبعتْها أصوات رصاص، قُتل إثرها شخص من الثوّار، وشخص من أتباع القائد.

ليلتها مرضتُ فجأة، فمن كثرة السهر والقلق، وفجيعة الاشتباك الذي حدث في النهار، انهرتُ، ولم يعد بالإمكان أن أذهب لمبنى

التلفزيون، وصار العبور بالنسبة إليّ مستحيلاً إلى أيّ مكان، كما أنني لم أعد أشعر، وأنا أُكابد الحمّى، بالخوف من أيّ أحد، فقد كان باستطاعتي أن أرفض الذهاب.

بقيتُ في غرفتي أتابع الأخبار من التلفون النّقّال دون أن يكون لي رغبة للنزول لمشاهدة التلفزيون. تكفّلتْ أُمّ محمّد بإعطائي أكل وشاي، ودلّتني على قناة في اليوتوب أكثر مصداقية في نقل الأخبار كما قالت. في هذه القناة شاهدتُ أشياء فظيعة من ممارسات القائد السّرّيّة، والتي اكتشفها الثّوّار في أثناء اقتحامهم لأحد قصوره في العاصمة. معظمها مشاهد جنسية، تجمع القائد مع فتيات من مختلف الجنسيات، وبعضها قيل إنها لفنّانات وعارضات أزياء شهيرات، يحرص القائد على تصوير لقاءاته الحميمة معهنّ للذكرى. وبعض هذه الصور كانت تُظهِره بأوضاع خليعة وهو يقوم بشبه اغتصاب لفتيات صغيرات وفتيان. لم تمضِ سوى ساعات حتّى اختفت هذه التسجيلات على اليوتوب، بسبب اعتراض حقوق البَثّ، كما قالت القناة، لكنّ ما بدا من التعليقات الكثيرة أن هناك مَن اعترض على بُثّها، لأنها تسيء لعائلات معروفة، قام القائد باغتصاب بناتهم وأولادهم. التعليقات نفسها دعت "أبناء وبنات عِراسوبيا إلى الثأر لعارهم ولكرامتهم من هذا الطاغية المستهتر بشرفهم".

كانت أصداء هذه التسجيلات واضحة في الوجوه الغاضبة التي رأيتُها في اليوم التالي جالسة فوق الكراسي وعلى الأرضية في بهو بيت الضيافة، تتابع نشرات الأخبار وتعليقات المحلّلين عمّا يجري في بلادهم. كان المئات إذ لم يكونوا الآلاف، حسب ما أراهم مباشرة على شاشات التلفزيونات الخارجية، يترقّبون في الساحة إلى سماع قرارات دولية، تسمح بالتّدخّل العسكري ضدّ زعيم البلاد "الذي تشير التقارير إلى أنه وأتباعه يقومون بمجازر جماعية وأعمال عنف واسعة ضدّ المحتجّين السِّلْمِيّيْن المطالبين بسقوط نظامه". كان المحلّلون والثّوّار الذين ينقلون آراءهم على الشاشات يطالبون بطائرات تقوم بقصف معاقل الطاغية إنقاذاً للمدنيّيْن، فيما الجميع في الساحة التي صارت تُسمّى ساحة

الأحرار، بعد أن كانت تُسمّى ساحة القائد، يحدّقون نحو شاشة كبيرة، نُصبت لعرض الأخبار العاجلة من التلفزيونات. كانوا يتابعون باهتمام كبير اجتماعات قادة الدول الذين يناقشون إمكانية التّدخّل العسكري في بلادهم، يرفعون أيديهم مستغيثين، متلهّفين لما سيصدر من هذه الاجتماعات، وكأنّهم في حال صلاة.

أحد المتعاطفين مع القائد كان منفعلاً في بهو بيت الضيافة. لا يصرّح بميوله خوفاً من ردود فعل الحاضرين، فيما الجميع كانوا يعرفون ولاءه. بقي يقوم ويجلس وهو يصرخ "ما هذا؟ ما هذا؟ كل هذه السنوات الطويلة ونحن نتربّى ونتعلّم أن نقف ضدّ الدول الاستعمارية، ضدّ الإمبريالية، ضدّ التّدخّل الخارجي في حياتنا"، وزاد في صراخه "كل هذه السنوات والقائد يعلّمنا أن نتحرّر من الاستعمار، والآن، هؤلاء الكلاب العملاء يطالبون بقوّات أجنبية، تدخل بلادنا، بلاد القائد العظيم".

أراد أحدهم أن يقوم ويصفعه، لكنّه استعدّ بسلاحه الكلاشينكوف سريعاً، وبدلاً من أن يصوّبه نحو مَنْ قام غاضباً عليه، رفعه بطريقة فنّيّة، ووجّهه إلى أسفل جمجمته، تحديداً تحت الفكّ الأسفل، وأطلق النار.

ذلك الذي أراد أن يصفعه بدا عليه مسحة حزن أكثر من الآخرين وهو يلملم الجثّة المتفجّرة رأسها، لكنّه سرعان ما تركها وهو يرى خبراً على الشاشة يشير إلى أن هناك قراراً صدر من الاجتماع الدّوليّ، يسمح بالتّدخّل العسكري في عِراسوبيا، فهتف فرحاً: "الله أكبر ... الله أكبر" جنباً إلى جنب مع هتافات الحاضرين في جواره، وهتافات الثّوّار في الساحات الذين يشاهدونهم على الشاشة.

عدد من المتحلّقين حول التلفزيون قاموا مسرعين، وقالوا إنهم سيذهبون للقتال ضدّ الطاغية، وكأنّهم كانوا ينتظرون، فقط، إشارة البدء، أو إشارة تشجيع على الأقلّ من هذه الدول، ليتّخذوا قرارهم الخاصّ.

لا أعرف إذا كان عليّ أن أواصل كتابة فصوص سيرة القائد؟ أم أتوقّف؟

مع هذا، أنهيتُ، في هذه الأجواء، الصياغات النّهائيّة للفصوص المتبقّية من الاثنَيْن والثلاثين فصّاً، وبدأتُ بما بعدها، وهو الثالث والثلاثون، واسمه الكمال. لقد استهواني في الحقيقة هذا الرَّقْم وتزامنه مع الاسم، فقد أشرتُ في روايتي الثانية عن حاكم بقي في السلطة ثلاثة وثلاثين عاماً، إلا أنني أردتُ تغيير الاسم إلى الاكتمال، وإن يكن ذلك مخالفاً لما ارتضاه المبجّل.

فما بدا لي وأنا أستعيد ما كتبتُهُ في روايتي الثانية أن هذا الرَّقْم يحمل اكتمال الكمال للعمر الذي تبلغ فيه القيادة والزعامة والفخامة أوجهها. ولكنْ، هل يمكن القول إن الديكتاتور، أيّ ديكتاتور، أو لنقل الثائر، والقائد والزعيم، بعد هذه السنة التي يبلغ فيها الاكتمال يتراجع إلى أرذل الخلق، ويسّاقط في عَدٍّ تنازلي حتّى ... حتّى ماذا؟

شعرتُ أن هذه الأفكار مناسبة لكتابة هذا الفصّ، وكنتُ أتساءل هل يمكن للقائد أن يستعيد مكانته السّلطويّة مجدّداً، وأقابله؟ مع أن ليس هناك من إشارات إلى وجود مثل هذه الإمكانية، وقد أصبحت الشكوك متداولة عن اختفائه.

ما هو مصير لجنة كتابة السيرة، يا ترى؟

اشتقتُ لأبي اليُمن وتعليقاته. آخر ما قال لي عن القائد هو إنه يتوحّد فيه الذكاء والغباء. "أحبّ البلداء، لأنهم سريعو السقوط، أمّا الأغبياء، فهم لا يرتفعون إلى درجة البلداء" قال.

هل سأقابله مرّة أخرى؟

أمس حدث شيء هائل، لم أُصدّقه، فقد جاءت إلى بيت الضيافة فتاة اشتهرت مع بدء الثورة بظهورها على القنوات التّلفزيونيّة مهاجمة الطاغية، وداعية إلى القبض على كل أركان نظامه ومعاقبتهم، وهي محجّبة الوجه، وملثّمة، بحيث تظهر عيناها، فقط، منها. تُلقّب بأخت الرجال، وهي الصفة التي قدّمت بها

نفسها إليّ، قائلة: أنا واثقة أنكَ مع الثوّار، وسوف نُؤمّن لكَ العودة إلى بلدكَ في أقرب وقت. جاءت مع سيّارة جيش، بملابس عسكرية ضخمة، تبدو أكبر من حجمها، وعلى كتفها كلاشنكوف. قلتُ لنازك إن صوتها ليس غريباً عنّي، وقد تساءلتُ كثيراً عمّنْ تكون حين كنتُ أسمعها في التلفزيون.

"لا أعرف عنها أيّ شيء سوى ما يقال إنها ابنة فنّان تشكيلي ومهندس معماري، بنى أجمل بيت في البلاد، ليسكنها هو وعائلته، لكن الطاغية مرّ مرّة من جوارها، فاندهش لها، وتوقّف أمامها، فقام الفنّان بإهدائها إليه خوفاً من أن يقوم الطاغية بأيّ إجراء ضدّه بعد أن صار يملك بيتاً أجمل من بيوته، فأخذها منه مقابل تعويض مالي، لكن الفنّان رفض التعويض، وعدَّها بمثابة هدية. إلا أن الحسرة لم تفارقه، فمات في الليلة الثانية من تركه لمنزله" قالت نازك.

هل هي نادية؟ الصوت الذي سمعتُهُ يشبه صوتها. ربّما تكون أختها. ولكنْ، هل يعقل أن الفتاة التي كان القائد همّها كله تصبح معارضة له، وبهذه الشراسة؟

صار بيتنا، بيت الضيافة، ضمن القطاع السَّكَني الجغرافي الذي يسيطر عليه الثوّار. نازك هي المنظِّمة لشؤون البيت، تقوم باستقبال العائلات النازحة والجرحى، وتوزيعهم على غرف الطابق الأسفل وجزء من الصالة، حيث تُجرى لبعضهم الإسعافات الأوّليّة. أُمّ محمّد طلبت منّي أن أسمح لامرأة وابنتها بالسَّكَن في إحدى غرف الجناح الذي أسكن فيه، فوافقتُ. "أتمنّى أن تبقى الأُمّ والبنت في جناحكَ دون أن يعلم بهنّ أحد. أنا سأكون أوافيهنّ بالأكل والمياه. حمّاماتكم ستكون مشتركة. احرصْ ألا تقابلهنّ أو تتحدّث معهنّ" قالت.

بدا لأُمّ محمّد أن الثوّار من حقّهم أن يتحالفوا مع أيّ جهة أو وجهة ضدّ الطاغية، وإذ وصفهم هذا الأخير بأنهم متحالفون مع الشيطان، قالت نازك إنّ الشيطان أفضل منه، وإنّ الثوّار يُفترَض أن لا يتراجعوا في مَدّ أيديهم إليه، إذا ما كان قادراً على

تخليصهم منه. رأيتُ في التلفزيون خطابات صوتية للقائد والمعتزّ، يدعوان فيها إلى حماية البلد. "إنها بلدنا كلّنا" يقول ابن القائد "إننا أخوة وأعضاء في جسم واحد". في أثناء ذلك، همست لي نازك إنّ محمّداً ابن الحارس عبد السلام قد قُتل، وإنهم لا يستطيعون أن يُخبروا أمّه بذلك، بعد أن ذهب الحارس نفسه إلى الجبهة فيما التحقت أخته فاطمة بكتيبة الثائرات المسلّحة النّسائيّة.

حين سمعتُ صراخاً في آخر الليل، وأنا في غرفتي، عرفتُ أن الخبر قد وصل إلى أُمّ محمّد.

-٤-

لم نعد نسمع سوى أصوات الانفجارات والرصاص طوال الأيّام والليالي. أصوات الطائرات المروحية وهي تحلّق فوقنا في بداية الثورة، تحوّلت إلى أصوات صواريخ سكود وكروز وطائرات توماهوك، حسب ما يقول العارفون بالفوارق بين الأصوات.

أبقى أتابع الأخبار من تلفوني النّقّال، في معظم الأوقات، بغرفتي.

الأخبار العاجلة والمفاجِئة عادة ما تجيء آخر الليل، ولهذا صار عليّ أن أبقى مترقّباً لما يُبَثّ أو يُنشَر. في إحدى الليالي كانت هناك أنباء تقول إن الطاغية، أو مَنْ كان يُوصَف بالزعيم القائد، قد تمّ أَسْره، وأنه سيتمّ التّحقّق من الخبر لاحقاً. انتظرتُ التفاصيل بلهفة وقلق. حاولتُ أن أنتقل عبر اليوتوب إلى أكثر من قناة تلفزيونية وموقع إخباري. لم يكن الخبر مؤكّداً، ومع هذا زاد أحد المواقع، وجاء بخبر مقتل القائد، ولحظتها سمعتُ صراخاً من السّيّدة وابنتها في الغرفة المجاورة، صراخاً شديداً، لم يتح لي البقاء لسماع تفاصيل الخبر، وذهبتُ لأرى ماذا حدث معهنّ. وكانت المفاجأة. إنّها الشيماء. نعم، الشيماء هي التي كانت مخبّأة، مع أُمّها في الغرفة المجاورة. كنتُ أسكن أنا وهي في جناح واحد دون أن أدري. حاولتُ أن أُهدّئها بالقول إن خبر مقتل أبيها غير مؤكّد. طلبتُ منها الصمت، وأنا أحتضن رأسها، لكي لا

تصاب هي وأُمّها بأيّ أذى من سكّان البيت. لكنها لم تهدأ، ولم تعبأ بــأيّ ردّ فعــل حــتّى تـأكّدنا أن القنـوات الفضـائية المعروفـة بمصداقيّتها لم تورد الخبر، بل إنها عادت ونفت خبر القبض عليه.

حين صارحتُ أُمّ محمّد بمعرفتي بوجود الشيماء وأُمّها بجواري، قالت إنها عملت ذلك، لأنها تعرف أن جناحي هو الأكثر أماناً، إذ لن يجرؤ أحد باقتحام سكن ضيف مثلي. هالني تسامحها، بالرغم من فقدان ابنها في المعارك. "المرأة ضعيفة، غريقة في كل بحر. علينا أن نمدّ إليها يدنا دائماً" قالت أُمّ محمّد.

الشيماء شرحت لي تلك الليلة وجهة نظرها عمّا يجري. بدت لي أنها غير صادقة تماماً، بعد أن سمعتُ صراخها إثر الخبر الكاذب. قالت إنها لا تستسيغ خطب أبيها التي يتمّ تداولها، وإنها تُفضّل أن يعذّبها الثّوّار في يوم ما، بل ويقتلوها أمام أبيها، ليُعذّبوه بها، وهي مُدلّلته وابنته المفضّلة. لم أسألها لماذا تريد ذلك، فما قالتْهُ غير مُقنِع بالنسبة إليّ، حتّى وهي تؤكّد: "حياتي معه عذاب في عذاب، لا أستطيع بوجوده أن أُحقّق رغباتي الشّخصيّة، رغباتي الخاصّة، مثل أيّ امرأة أخرى".

انتقلتْ معي إلى غرفتي بعد أن نامت أُمّها، لكي نواصل حديثنا دون إزعاج لها. صارحتْني بأنها تريد أن يُحاكَم أباها، ولا يُقتَل. أكّدت لي الشكوك المتداولة حول اختفائه، إذ لم تعد تعرف، هي أو أحد المقرّبين منه، مصيره.

تحاورْنا حول ما يجري، وحول مصيري ومصيرها حتّى سمعنا أذان صلاة الفجر من إمام وخطيب المسجد المجاور الذي كنتُ أسمعه، من قبل، عبر مكبّرات الصوت وهو يدعو الله أن يحفظ القائد. وصار يردّد بدل الأدعية: الله أكبر .. الله أكبر؛ مرّات عديدة وكأنه يكبر في صلاة عيد، فيما أدعيتُهُ تحوّلت إلى مناجاة لله، ليحفظ البلاد والعباد.

-٥-

"أنا سحر الحالمة بموت الرئيس" قالت الفتاة الشّابّة التي وصلت

للتوّ من الولايات المتّحدة وهي تُعرِّفني بنفسها. اندهشتُ وقلتُ لها إنني أتابع مدوّناتها وتغريداتها.

بدا لي أن البيت في غرفه الثامنة عشرة في الطابق الأسفل، وفي أجنحته الثلاثة المجاورة لجناحي في الطابق الأعلى، قد أصبح ملجأ للثوّار الذين لا يعرفون مَنْ أكون؟ ولماذا جئتُ؟.

قلتُ لسحر، الحالمة بموت الرئيس، إنني قرأتُ إعلان رغبتها الزواج والاستقرار أخيراً، وإن مهرها، لمَنْ أراد الزواج منها، هو رأس الطاغية. ابتسمت، وقالت لي: ما رأيكَ أن تفعلها. قلتُ لها أتمنّى ذلك، ولكنْ، لا حول لي ولا قوّة.

أين أنتِ، يا سماح؟ وما أخباركِ؟

عبد السلام التحق بالثوّار، ولم يعد يجيء ليحقّق لي ما وعدني به، وهو الاتّصال الدّوليّ.

سألتُ أمّ محمّد عنه وعن فاطمة، فقالت إنها لا تعرف عنه أيّ شيء، أمّا فاطمة، فبقيت فترة تقاتل مع كتائب الثائرات، وبعدها تعرّفت على مراسل تلفزيوني أمريكي، قدم إلى البلاد، فصارت تعمل معه مترجمة. أعطيتُها مبلغاً من المال، لتبحث لي عن وسيلة اتّصال دولية، فقالت إن بإمكان سحر أن تساعدني، لأنها تحمل تلفوناً نقّالاً غير محلّيّ، ولكنْ، عليّ أن لا أعطيها المال، لكي لا تُشكِّك بمصدره.

كانت أخبار المعارك وأرقام الضحايا من الجانبَيْن تتوارد باستمرار، وقد صار مصير القائد، كما هو مصير أبنائه، غير معروف، وبدأت أنباء تشير إلى أن الثوّار سيشكّلون قريباً حكومة انتقالية، وهو ما تمّ سريعاً، حيث أُعلن عن قيادة ثورية للبلد منهيةً بذلك سلطة القائد المبجّل، وإلى الأبد.

وقتها سمعتُ أصوات الرصاص والمدافع من كل مكان، بما في ذلك ساحة وسطح منزل بيت الضيافة. ظننتُ أن معركة نشبت إثر إعلان القيادة الجديدة، لكن نازك سرعان ما جاءت وقالت لي إن إطلاق الرصاص والمدفعية تعبير عن فرح الثوّار بالانتصار،

شعرتُ ليلتها أنني روائي جبان، بالأصحّ كنتُ أشعر بالخوف. لا أعرف ما يعني الجبن، وليس لديّ أيّ تعريف واضح له، أمّا الخوف، فإنني أشعر به، وأحسّ به. لهذا بقيتُ أقدّم نفسي كباحث في التراث العِراسوبي، وهو ما كنتُ قلتُهُ من قبل للطّبّاخة والحارس وابنته والمنظّفة والسّوّاق. ما كنتُ أسمعه من الثّوّار يخيفني كثيراً، فهم لا يثقون ببعضهم، وكل واحد يرى الآخر متخاذلاً أو غير كفء، ليقوم بأيّ مهمّة ثورية، كل واحد كان يُحذِّرني من الآخر. لهذا صرتُ أخاف الجميع، خفتُ أن تنتهي حياتي على يد واحد منهم، إذا ما عرفوا طبيعة المهمّة التي جئتُ من أجلها.

زاد من خوفي بل وفزعي ما حدث في صباح اليوم التالي، فالشيماء لم تعد قادرة على البقاء في مخبئها، وصارت كثيرة الهذيان. وحين صادف وقابلتْ سحر عرّفتْ بها أُمّ محمّد، باعتبارها موظّفة سابقة في مكتب القائد، وأنها انشقّت منه، ولم تقل لها إنها ابنة القائد نفسه. لم تتقبّل سحر الفكرة، واعتبرتها من أعوان طاغية النظام السابق، وإلا لماذا لم تتخلّ عنه في وقت مبكّر، وترفض العمل معه؟! قامت على الفور، وأرادت أن تُخرِج مسدّسها، لتُصوِّبه نحوها، لكن أُمّ محمّد ومعها نازك استطاعتا أن تحولا دون قتلها، وأخذتاها، مع أُمّها، إلى مخبأ، ربّما هربت منه بعدها إلى مكان، لا أعرف أين هو.

لم أستطع بعد هذه الحادثة أن أطلب من سحر أن تمنحني تلفونها لأتّصل وأسأل عن زوجتي سماح. خفتُ أن تكتشف سبب مجيئي إلى هذا البلد، بأيّ شكل من الأشكال، وتكون العواقب وخيمة.

-٦-

حكايات القادمين الجدد إلى بيت الضيافة كانت مهولة، وبعضها لا تُصدَّق. فقد جاؤوا بعشرة أشخاص ليملؤوا أربع غرف، كانت متبقّية في الدَّوْر الأسفل. قالت نازك إنّهم مساجين فرّوا من

جزيرة الموتى، والتي هي بمثابة سجن كبير. تمَّ تسميتها هكذا، لأن الذين يُحكَم عليهم بالنفي، ويذهبون إليها، لا يعودون أبداً. أكثرهم حضوراً كانت سيّدة لطيفة تُسمَّى أُمَّ المتصدِّقات. قالت إنّها أسّست بيوتاً للنساء المتصدِّقات، بيت الطَّيِّبات، بيت الرحيمات، بيت المحسنات، وبيت المتفضِّلات، لمنح الصدقة للمحتاجين والمحرومين عبر متخصِّصات كريمات، يقمنَ بذلك بإدارة واعية، تُنظِّم العطاءات في كل بيت. "ما الذي يُغضبه، ما دام الأمر فيه صدقات ومحتاجين؟" سألتُ. وهنا قهقهت نازك ضاحكة بشكل لم أرها من قبل تضحك على هذا النحو، بل لم أرها تضحك من قبل، مثلها مثل بقيّة عمّال بيت الضيافة. "تقصد الطاغية. قلْ ما الذي لا يغضبه، كل شيء كان لا بدّ أن يمرّ بأمره وتوجيهه" أجابت أُمّ المتصدّقات. "كنّ بائعات هوى" أوضحت نازك، فيما لاح غضب على وجه الأخرى، قبل أن تردّ "لا، لم نبع الهوى. لم نبع أيّ شيء. كنّ نعطيه لمَنْ يحتاج من المحرومين، سواء للذين معهم مال، ويستطيعون أن يساعدونا في إيجار المنازل ومصاريف البنات أو الذين ليس معهم أيّ شيء. نحن نتصدّق، يا أخت، بكرامتنا وشرفنا، نتصدَّق من خيرات الله". قالت إنها بقيت كثيراً تؤسّس هذه البيوتات، وتشرف عليها حتّى بداية المرحلة الإيمانية الزائفة للطاغية، حيث "قبضوا على الفتيات كلهنّ، ثمّ أطلق سراحهنّ، لكنه رفض إطلاق سراحي، وأرسلني إلى جزيرة الموتى، لأنني رفضتُ أن أطلب مغفرته. نحن لم نعمل أيّ خطيئة. هل الصدقة خطيئة؟ كل واحد يتصدّق ممّا معه. نحن تصدّقنا ممّا معنا لمَنْ يحتاج له".

أُمّ المتصدّقات هي التي حدّثتني عن شخصَيْن آخرَيْن كانا معها في جزيرة الموتى، وصارا يسكنان في بيت الضيافة إلا أنهما يبدوان كالمجنونَيْن، ولا يتحدّثان سوى بكلمات هذيانية غير مرتّبة. الأوّل قالت إنّها علمت، في أثناء خروجهم، أنه عالم فَلَك، كان المنجِّم الخاصّ للقائد. يحرص صباح كل يوم أن يعطيه توقّعات لما سيحصل في يومه، وما الذي عليه أن يتجنّبه. لكن القائد، الذي يجهل تاريخ يوم مولده، غيَّر برجه ثلاث مرّات، من الثور إلى العقرب إلى العذراء، ممّا كان على المنجِّم أن يعمل

حسابه، لكي لا يغضب القائد، إذا بدا طالعه سيّئاً في بعض المرّات. لكنْ، وبعد حصوله على أوامر بأن يكون صادقاً معه مهما كان الحظّ، قال له ما تقرّه الأبراج في تحوّلاتها، وهنا وبعد مرَّتَيْن فقط، غضب منه كثيراً، واعتبره مدسوساً من مخابرات أجنبية لتحطيم معنوياته، وأرسله إلى جزيرة الموتى. أمّا الثانية التي طلبتُ من أُمّ المتصدِّقات أن تحدّثني عنها، فهي "إيطالية، كتبت كتاباً عن القائد، أَسمتْهُ الديكتاتور الحقير، وقد وجدت نفسها في جزيرة الموتى بعد سجن، دامت فيه أكثر من سَنَتَيْن، قاست فيه أشدّ أنواع التعذيب. هي لا تدري كيف جِيء بها إلى هذا البلد، ثمّ إدخالها إلى السجن، ونَفْيها. هل خطفوها وانتحلوا شخصيّتها؟ القائد الحقير قادر على كل شيء". رفضت أُمّ المتصدِّقات الحديث عن بعض زملائها الآخرين. قالت لا أريد أن أتذكّر وأتألّم. الآخرون بدورهم كانوا لا يريدون أن يتذكّروا، فهم لا يتحدّثون عن أيّ شيء. وإن تحدّثوا عن شيء يظهر، بكلماتهم غير المرتّبة، وكأنّه لا شيء.

من الراديو الوحيد في جزيرة الموتى الذي تركه السّجّانون، وذهبوا لقَمْع الثّوّار، سمع المسجونون أن هناك ثورة ضدّ القائد. بعضهم لم يصدِّقوا أن النظام سقط، وأن القائد اختفى، فيما البعض الآخر لم يبالوا بما حدث، بل لا يدرون ما يقال وعن ماذا ولماذا، فلم يعودوا يعرفون ماذا تعني ثورة أو مَنْ هو القائد، فالحياة القاسية في ذلك المنفى سلبت من الكثيرين عقولهم وذاكراتهم، باستثناء القليل منهم كأُمّ المتصدِّقات التي تحرص، قبل النوم، أن تحكي للمتحلّقين حولها القليل عن حياتهم الميتة في جزيرة الموتى: "بعضهم خاف من مغادرة الجزيرة. لم يكونوا يدرون إلى أين سيذهبون. عشنا هناك كالحيوانات القذرة. يفصلون بين الرجال والنساء. نراهم من بعيد، وكل طرف يتلهّف لملاقاة الآخر عبر التّمرّغ برمال وحصى الجزيرة. كنّا نتقصّد أن نتعرّى أمامهم، ولو من بعيد، وهم يقومون بذلك أيضاً. لا أحد يمنعنا. المهمّ أن لا نقترب من السياج الذي يمنع لقاءنا. بعضهم كان دائم التّعرّي حتّى مع هول عواصف الجزيرة وريحها، حيث لا أحد يستطيع الوصول إلينا بسببها. هناك أشهر محدّدة تهدأ فيها

العواصـف، فنعـرف أننـا سـنستقبل مَنفيّيْن جـدداً، يـأتون إلينـا بطائرات مروحية، تحمل لنا، أيضاً، تلك الموادّ الغذائية المتعفّنة مـن الـرّزّ والـدقيق والزيـت وبـس". تضيـف أُمّ المتصدّقات: " كنّا نعيش كموتى. لا أمل لنا في الخروج. لا أمل لنا في أيّ شيء. في الجزيرة لم يكن هناك تعذيب للمسجونين، لأن مجرّد العيش فيها هو التعذيب. يشعر المَنفيّ إليها وكأنّه عُوقب بجهنّم لمعصيته الخـالق، أسـتغفر اللـه، أقصد القائد". قالت إنهم كانوا موتـى بلا قبـور، يـأكلون مـن الأشجار إذا ملّوا الأكل القذر الذي عليهم أن يطبخـوه كـل يـوم. "كـانت هناك الكثير من المشاكل سواء بين النسـاء، أو مـا نسمعه من مشاكل بين الرجـال. صراعات حزبيـة وعقائدية وقومية، نقلوها معهم إلى الجزيرة. لا أحد يمنعهم أو يُوقِف معاركهم. الدماء دائماً تسيل، والقتل أسهل ما يكون. فكّرتُ أكثر من مرّة بأن أنتحر، وتراجعتُ. فقد شعرتُ أن ما أعيشه هو ما بعد الانتحار. لم أفكّر بأنني قد أعيش حياة أخرى مختلفة عمّا كنـتُ فيـها. جميعنـا، الخـارجون من جزيـرة الموتـى فقدْنا الأمل تماماً، ولم نعد نفكّر بأيّ مستقبل. لا أظنّ أننا قادرون الآن لنفكّر بالمستقبل. كيف يفكّر بالمستقبل مَنْ سبق له الموت؟ كمّيّة اليأس التي شربناها تكفي لموت كل بذرة أمل في العالم. يمكن للناس في العالم أن يعيشوا بأمل إذا أرادوا، أمّا نحن فقد قتلوا فينا أيّ شـعور بـالأمل أو بالمسـتقبل". مـا تقولـه أُمّ المتصدّقات كـانت توضحه تلك الجموع القادمة من جزيرة الموتى، والتي يتناقل الناس أخبارهم. فخروجهم كان كخروج أناس شبعوا من الموت سـنوات طويلـة، أو عاشـوا فيـه، وهـا هـم يُبعثـون مـن جـديد. يتجـوّلون فـي الشـوارع عُراة مـن اللبـاس، وعُراة مـن أيّ شـعور بـالخزي، بمَنْ فيهم النساء اللواتـي أدهشنَ سكّان المدينة وهنّ يتناولنَ منهم الملابس لتغطية أجسادهنّ، ثمّ يقمنَ سريعاً برَمْيها، في أقرب منعطف. ظهروا متوحّشين من كل شيء، بعضهم أخذ أسـلحة وذخـائر، وبقـي يـرمي بـدون هـدف. وبعضـهم، وهـم الأكثرون، مضوا في تيهانهم، لا يدرون ماذا يفعلون في الحياة الزائدة التي باغتَتْهم فجأة.

فضّ القذى

-١-

كنتُ آمل أن أركل الفقر، وأن أعالج زوجتي سماح، لكن ما حدث هو أنني رُكلتُ أنا فقط، رُكلتُ أكثر ممّا كنتُ أتوقّع، بل وأكثر ممّا كنتُ عليه من قبل.

لقد ماتت سماح.

اتّصلتُ إلى تلفون الجيران، بعد أن تعذّر الاتّصال بها، فجاءني الخبر. مَنْ سافرتُ من أجلها كانت قد ماتت منذ شهر ونصف، ماتت أقرب الناس إليّ، وماتت معها آمالي بحياة كريمة، تضمُّنا معاً. لم أستطع أن أُفصح لأحد عمّا جرى، وبقيتُ أعتصر الألم وحدي. لا عزاء لي بفَقْدها، ولو بضع كلمات أتلقّاها من أيّ أحد.

اتّفقنا أن نموت معاً بهدوءٍ محبّين، لكي لا يُسبِّب أحدُنا الحزنَ للآخر، إذا مات منفرداً، فيصير رومانسياً غير ما كان عليه في الواقع. كنّا فقراء، ونحبّ بعضنا، لكننا بلا رومانسية.

قبروها في مدفن جماعي، لا اسم أو علامة تدلّ فيه إليها، فلأنه ليس هناك قيمة لعلاج أو قبر، رحلت وذابت في حفرة للجميع. لم يهتمّ بها أحد أو تجد مَنْ يودّعها أو تودّعه في آخر لحظات حياتها.

حين جاء محمّدين في سيّارة الضيافة الرّئاسيّة إلى منزلنا، وهي المرّة الوحيدة التي تأتي سيّارة من ذلك النوع إلى حَيّنا الفقير في أقصى أطراف القاهرة، قلتِ لي إن عمراً جديداً كُتب لكِ، فاطمأننتُ. ظننّا أننا سنعالج مشاكلنا من المال الذي سأحصل عليه، ولم نكن ندري ما الذي تخبّئه الأيّام لنا.

والآن لا أحد يُؤنِس وحشتي في هذا العالم الموحش. لا عزاء إلا أن أتذكّر أيّامنا معاً. أيّامنا الفقيرة بالأكل والملابس والصّحّة والغنيّة بالأحلام. أيّامنا الحالمة التي ماتت. أنا لم أنسكِ أبداً، يا

سماح، وإن غفلتُ عنكِ في لحظة إغواء، لم أستطع مقاومتها. كنتُ في ما يشبه الغيبوبة، مخدّراً، مكبوتاً. سامحيني، يا سماح. ستُوحشيني، يا سماح. ستُوحشيني في كل لحظة. ستوحشيني حتّى الموت.

-٢-

لم أعد أهتمّ بمصيري، هل سأعود؟ أم سأبقى؟ كما لم أهتمّ بمصير الشيماء، ولا أريد أعرف إلى أين مضت. حتّى المعارك التي تدور وتطحن الجميع في متابعاتهم وانفعالاتهم لم تعد تثير اهتمامي. وقد بدت أنها خرجت عن طورها أو عقالها، كما يقال. فبقَدْر ما هناك معارك بين الثّوّار وبقايا أنصار القائد، هناك أيضاً معارك بين الثّوّار أنفسهم. في بيت الضيافة وحدها تنشب الكثير من الحوارات الحادّة التي تتحول إلى اشتباكات بالأيدي؛ آخرها تلك المعركة التي نشبت بين سحر والمنظّفة أُمّ أسعد ونازك وأُمّ محمّد، مع صمت السائق شاكر أبو الحُسن، الذي بقي يقدِّم خدماته لساكني البيت الجدد دون أن يعلن مواقفه. المعركة كانت بعد أنباء تشير إلى أنه قد تمّ القبض على القائد الطاغية، ودارت حول كيفية قَتْله، ومَنْ سيقوم بمهمّة القَتْل هذه. وكأن هذا المصير صار مؤكّداً، مع أنهنّ ردّدنَ، قبل ساعات، الأخبار التي تقول إن الطاغية هرب إلى بلد آخر مجاور. المتحلّقون حول الإذاعة، التي يسمعونها كلّما انطفأت الكهرباء، وغاب بَثُّ التلفزيون، بقوا، هم أيضاً، يناقشون إذا كانت جثّة الطاغية ستُدفن في قبر؟ أم ستُرمى في مكان مجهول؟ وهل من المهمّ محاكمته؟ وقد رأت نازك أن محاكمته واجبة، لتفضح تاريخه القذر كلّه، فيما ردّ أحد جرحى الحرب أن عليهم أن يعدموا الجثّة تماماً، ويخفونها، وكأنّها لم تكن في يوم من الأيّام. وهو قول أغضب أحد الخارجين من جزيرة الموتى، فقام بأخذ الراديو، وقذفه به، إلا أنه وصل إلى فوق الجدار، فتهشّم. وراحوا يحاولون إصلاحه، ليسمعوا آخر الأخبار منه، فلم يُفلحوا في ذلك، وذهبوا ليبحثوا عن راديو آخر. بدا لي من النقاشات الحادّة أن القائد سيُقرِّر مصير حياتهم المستقبلية، كما قرّر مصير حياتهم

الماضية، إذ سيشغلهم ميتاً كما شغلهم حيّاً، وكأنهم صاروا مرضى به، مصابون به، ولا شفاء منه.

شاهدتُ في التلفزيون محمّدين وهو يعلن انشقاقه عن النظام وانضمامه للثورة. يسمّونه الصندوق الأسود للطاغية. هل سيأتي اليوم الذي سيتحدّث فيه عن تجربتي في كتابة سيرة القائد؟ يا للرعب! ويا خوفي لو يحدث هذا! سوف يكون بمثابة إعلان موتي، موتي المعنوي والماديّ. قال إن الطاغية كان يتفنّن في تعذيب معارضيه بأن يفقأ عيونهم، حتّى صار هذا السلوك لديه عادة، لم يستطع التّخلّي عنها إلا حين نصحه بأن تجلب له حبيبات عِنب، في وعاء يظلّ أمامه تحت غطاء، لا ينتبه إليه أحد، ليبقى يهرسها، أو يفقأها كالعيون، بأصابعه كلّما تذكّر أحد الذين يكرههم. لقد صار يتحدّث عمّنْ كان بمثابة اليد اليمنى له كمُدمِّر للبلاد، ومُفسِد للحياة. وهو الموقف نفسه الذي اتّخذه الوزير أبو النُّبل ومسؤولون آخرون عملوا طوال حياتهم مع القائد الذي صاروا يصفونه بالطاغية. كما شاهدتُ على الشاشات بعض الخارجين من جزيرة الموتى، الذين بقوا صامتين منذ خروجهم، وقد صاروا زعماء كتائب كوّنوها، ليُقاتلوا بها ما تبقّى من ميليشيات القائد إضافة إلى قتال الجماعات التي يختلفون معها، ويرون أنها خطر على الثورة. في مقاطع الفيديو الموزّعة، لاحظتُ أيضاً، مئات العمارات التي سُوِّيت بالأرض، وانتشار تعليق الرؤوس المقطّعة على أعمدة الكهرباء سواء من أتباع النظام أو من أتباع الثّوّار والميليشيات المتعدّدة، وكأن الكل صار ضدّ الكل، يصرخون بلا معنى، إذ بدت لهم الثورة وكأنها تعني التقارب مع الموت أكثر ممّا تعني الاقتراب من الحياة. كان على الرصاصة أن تخرج من أسلحتهم، بل ومن أجسادهم كتنهّدات أو تنفّس، وليس هناك ما هو محدّد، ليُصوبوها نحوه، فالقائد الذي كان هدفاً لم يعد موجوداً. لقد تأكّد مصرعه، وصار عليهم أن يجترّوا تواريخ ومسبّبات أخرى، ليُفرِّغوا رصاصاتهم، بعد أن بدا أن لا فائدة من نزع أسلحتهم، فإذا لم توجد، فسوف يَقضمون بأسنانهم، يَخنقون ويَركلون ويَذبحون ويَصفعون وهم يشتمون تلك الشتائم التي لم تعد تشفي غليلاً أو تريح بالاً.

كنتُ أريد أن أخبركِ، يا سماح، عن النهاية الشنيعة التي حدثت للطاغية في هذا البلد الذي بقي لسنوات طويلة يحمل اسمه أو صفته. فما حصل لمَنْ كان يعدّ نفسه مبجّلاً من الجميع لا تتوقّعينه، لقد مات مليون ميتة، منذ أن قالوا له: لا، وصولاً إلى تلك النهاية الفظيعة. فبعد أن عُثر عليه في حفرة لمياه الصرف الصّحّي، قاموا بتعليقه وصلبه على عمود حديدي، ثمّ نزعوا أظافره بالقوّة، وقطّعوا أصابع قَدَمَيْه ويَدَيْه وذكورته، وفقؤوا عينَيْه. لم يُنصتوا لاستغاثته ورجائه، وزادوا في شنقه، وفي الأخير، وجّهوا نحوه رصاصات لا عَدَّ لها. بعدها ربطوا جثّته إلى مؤخّرة سيّارة، وجرّوها في الشوارع بين أكوام القمامات المتعفّنة التي لم ترفع منذ اندلاع الثورة.

هكذا بدا أن القابضين على الطاغية لم يتيحوا فرصة لنشوب معركة حول كيفية قتله، ليصيّروا الخلاف، فقط، حول كيفية دفنه، وكيف يتأكّد الناس أنه انتهى وإلى الأبد.

لم أرَ فرحة بنهاية القائد الطاغية، كما رأيتُها في وجه أُمّ محمّد وعينَي سحر. أمّا نازك التي ظلّت ترجو أن تقتله هي بسُمٍّ تضعه له مع الأكل، فما إن رأت القائد في التلفزيون وهم يسحلون جثّته، حتّى لعلع صوتها، بل جسدها كله الذي قفز من مكانه في صالة بيت الضيافة، بزغرودة متواصلة، لم تقطعها إلا لتصرخ: "الكابوس مات. الكابوس مات"، وقد اتّجهت نحو الشارع وهي تردّد عبارتها، فيما يدها اليمنى كانت تلوّح براية ملوّنة، لم تكن سوى مِضْرِ رأسها الذي صار فيه شَعْرها منثوراً بدون حجاب.

حين حاولتُ أن أتبعها مع أُمّ أسعد، التي كانت مندهشة ممّا يجري، لنحاول إعادتها حرصاً على سلامتها من أيّ ردود غاضبة، يقوم بها موالون للقائد، رأينا عمّ عبد الله الأعمى وهو يمشي بخطى سريعاً مادّاً يَدَيْه إلى الأمام، وكأنه يتلهّف لعناق حبيب غائب. بدا وكأنه استعاد بصره، إذ صار يركض بدون عكّاز. لا أظنّ

أن الشكوك حوله والمصنّفة له كمخبر كانت في محلّها، ولكنْ، أليس المخبرون أنفسهم قد تحرّروا أيضاً، من سطوة السلطة، ومن أعمال، ربّما لم يكونوا يحبّونها؟

سحر لم تنم ليلتها كالآخرين، وبقيت تتساءل، بطريقة هيستيرية، عن أبيها الأحمد الذي لا أحد يعرف مصيره. لم تكن تبدو أنّها تخاف عليه. وضحكاتها لا تقول شيئاً سوى أنّ لديها رغبة لتقول له لقد انهزمت، وكأنها كانت على رهان معه على انتصار حلمها، بل وحلم عمّتها. ليس هناك ما يشير إلى أنّها كانت تريد قَتْله كالشيماء. تلك التي أرادت قَتْلها، لأنها قُدِّمت إليها، باعتبارها موظّفة في القصر مثل أبيها. ولم تكن تعرف أنها ابنة القائد نفسه.

ما لفت المتحلِّقون حول التلفزيون، في آخر الليل، أن سحر لمّت هيستيرية فرحها فجأة، وتماسكت، وراحت تحاول بطُرُق مختلفة أن تستعيد مدوّنتها وصفحتها في الفيس بوك، وتربطهما مع تويتر، بتغريدة، أو عبارة واحدة: لقد مات الرئيس كما حلمتُ، تماماً.

-٤-

مع هذا بدت أُمّ أسعد وكأنّها غير مصدِّقة أن الذي عثروا عليه هو القائد، وظلّت تردّد بهمس أنه البديل. أمّا شاكر أبو الحُسن، فلم يشكّك في هوية القائد المعروضة صوره، لكنه لم يصرّح برأي، وبقي يتساءل عن مصير المعتزّ ابن القائد. ماذا لو عاد وسيطر من جديد، وعاقب الجميع، الجميع بلا استثناء حتّى أولئك الذين صمتوا وهو منهم؟!

وقد بدا أنه لا ينام، وصار يفكّر أمامي بصوت مسموع، فإذا كان التصريح بالوقوف مع المعتزّ، وهو الذي لم يتيقّن بعد من موقفه هذا، يعني قتله من قبل الثوّار فوراً، فإن صمته لم يعد مقبولاً من الثوّار الذين استولوا على كراسي القائد، وبدؤوا يستعيدون أسماء عِراسوبيا القديمة، ليختاروا إحداها كاسم للبلد، بعد أن

هذا الصمت لدى المعتزّ، مَنْ كان يظنّ، في ساعات القلق، أنه قد يعود، وهو ابن القائد. في الأخير وجد نفسه وهو يفتح فمه، صرخ، ورفع يده عالياً وهو قابض على أصابعه. ظلّ يحاول أن يقول أيّ شيء. هذا الشيء كان موجّهاً ضدّ القائد البائد، شتمه ولعنه، بل وظهر أنه في حال استعداد ليوجّه قبضة يده التي يرفعها مع صراخه إلى وجه أيّ أحد. وبدا لي، وربّما بدا لنفسه أيضاً، أنه صار قوياً على غير عادته. ولهذا جاء الخبر، في اليوم الثاني المخصص لعرض جثة الطاغية أمام الملأ من خلف حاجز زجاجي أن أبا الحُسن شاكر هو أوّل مَن اخترق الحاجز، إذ لم يشتفِ بما سبقه من اللعنات والبصاق، وراح يرفع ثوبه التّقليديّ، وبحرفية عالية، أرسل من وسطه ما يتجاوز حافّة الزجاج إلى الجثّة، فعطّرها، كما ردّد البعض ساخراً، إلا أن ذلك، ومع تهاون الحرّاس، بدا له أن ما عمله غير كاف، فقلب الزجاج الذي وجده متهاوٍ، وغير مثبت، كما ظنّ كثيرون من قبله، واندفع أمام الحَرَس الذين لم يتدخّلوا، ربّما لأنه عمل ذلك برمشة عين، أو أن لديهم تعليمات بأن يسمحوا للمتفرّجين أن يُعبّروا عن غضبهم، ويشفون غليلهم، بما في ذلك البصق، باستثناء أخذ الجثّة والعبث بملامحها، لكي لا يأتي آخرون، ويُنكرون صاحبها، ولم يتوقّعوا، هؤلاء الحَرَس، أن يصل بأحدهم إلى تجاوُز التعبيرات السابقة كلها، ويندفع ليُفرّغ ما في بطنه من قذى فوق الجثّة المبجّلة، ليتبعه كثيرون. لتصبح، بعد أن تكاثروا مغطّاة، تماماً، بالقذى، وهي الصفة المخفّفة لأوسخ ما تُنزله أجسادهم. حتّى إن القادمين في اليوم الثالث لم يعد باستطاعتهم أن يُلقوا نظرة على مَنْ تحكّم بمصيرهم طوال سنوات عمرهم، دون أن يسدّوا بأصابعهم فتحات أنوفهم، وقد أحسّوا أنّهم يتفرّجون على جثّة من قذى.

أنا أيضاً، حين بدأتُ أجمع أغراضي مستعداً للرحيل، لم أستطع التّخلّي عن صورة الجثّة المتداولة، ووجدتُ يدي تتمنّع من أن تمتدّ، وتأخذ التمثال الذّهبيّ، ليس لأنه لم يعد بالإمكان، بل ومن المستحيل، إخراجه وهو يحمل شكل المبجَّل البائد من المطار أمام مرأى رجال أمن الثورة الجدد وحُرّاسها، بل ولأنه بدا لى هو

الآخر مجرّد قذى.

-٥-

لم أنم ليلتها، وبدت لي فكرة أن أكتب الفصّ الأعظم، كما كان يسـمّيه، أو المنتصـف والأخـير، بـهواي هـذه المـرّة، فـإذا كـانت الفصـوص الأولـى قد قرأها، والفصوص من ثلاثة وثلاثين إلى خمسين قد شارك في اختيار أسمائها قبل كتابتها، فإن هذا الفصّ لم يعد، مَنْ كانت البلاد ملتصقة بصفته موجوداً ليُسمّيه أو يقرأه، كما لم يعد أحد على وجه الأرض قادراً أن يُكمِل له فصوص عقده بالطريقـة التـي رآهـا، وكـأن إكمالـه هـو المسـتحيل. فكّرتُ، وأنا أسـتذكر مشـهد الجـثّة الوسـخ المـوزّع عبـر وسـائل التواصـل الاجتماعي، التي صارت منتشرة، بأن أُسمّي الفصّ المئة وواحد بـ: فـصّ القـذى، مُعطِيـاً وصـف الجـثّة كلمـة أكثـر تهذيباً، كما عمل البعض من قبلي. أيّ اسم كان سيُطلَق على هذا الفصّ الذي أراده أن يكـون الأعظـم؟ أراده في مئة كلمة وكلمة، بزيادة كلمة عن الفصوص الأخرى. لن أتقيّد بتوجيهه، فقد انفرط العقد، أو نصفه علـى الأقـلّ، ومعـه انفـرطت التعاليم، بل والإطار انفكّ، وها أنا أكتبه، الآن، بلا عدد للكلمات أو إطار. ربّما يكون هذا الفصّ فاصلاً، بين قسمَيْن من العقد، وقد صار النصف الثاني متروكاً لآخرين، وعليهم، هم وحدهم، أن يُكمِلوا شكل وتنظيم وتسمية وكتابة فصوصه المتبقّية. "سنصنع فصوصاً لعقد جديد"، قالت سحر حين أخبرتُها أن هناك تاريخاً للمبجَّل، كُتب على هيئة فصوص في عقد، وأنه في انتظار مَنْ يُكمِله. كنتُ قد فكّرتُ، وأنا على وشك المغادرة، أن أُصارحها بمهمّتي التي جئتُ من أجلها، لكنني تذكّرتُ ما الذي فعلتُهُ بالشيماء، فتراجعتُ. فاطمة التي قرّرتْ أن تبقى إلى جوار أُمّها ولو إلى حين، بدت أكثر تفهّماً، لكن فرصة الحديث معها لم تعد ممكنة. كانت قد أتت لتُخبر أُمّها أنها تنوي أن تغادر مع المـذيع فـي القنـاة الأمريكيـة. كاشفة لها أنهما أحبّا بعضهما. لكنها فُوجئَت أن أُمّها لا تجيب عليها بغير البكاء، لتفهم ممَّنْ في البيت أنّ أباها لحق أخاها محمّد، وصار إلى جواره في قوائم القتلى.

لا أعرف كيف ستكتب سحر أو فاطمة، أو غيرهما، فصوص العقد الجديد، أو كيف سيتمّ وصل هذه الفصوص، لكنني أظنّ أنها مهما فُصِّلت ولُوِّنت، أو حتّى اتّخذت لوناً واحداً، لن تكون مشابهة لفصوص عقد المبجّل الذي لم يكتمِل، وانفرط إلى الأبد.

في الصباح، عادت الكهرباء، فتحلّق الجميع أمام التلفزيون المركون على طاولة في البهو. سمعتُ منه، وأنا أنتظر أيّ أحد ينقلني إلى المطار، بياناً من قيادة الثورة، جاء فيه أنّهم سيرمون جثّة الطاغية في مكان مجهول، لكي يُنسَى ذِكْرُه وإلى الأبد، وكأنه لم يكن. لكن نازك، التي انسحبت من المتحلّقين حول التلفزيون، وجاءت لتُودّعني، شكّكت في الإعلان، وقالت إنّ الجثّة قد اختفت فور انتهاء عرضها للناس. ولم تكتفِ بهذا القول، وزادت أن عدداً من الثوّار قاموا بأكلها. اندهشتُ وأردتُ أن أسألها: كيف كان ذلك؟ وهل غسلوها من القذى؟ وكيف استساغوا جيفتها بعد أربعة أيّام من السَّحْل والعَرْض؟ انتبهت وهي تلاحظ استغرابي، مع هذا لم تشرح لي كيف يمكن أكل جيفة. اكتفت بالقول إنها صدّقت ما سمعتْهُ مثل الكثيرين، وبدت على وشك البكاء، وهي تمسك بيدي بقوّة: "كيف لا نصدِّق أنّ جثّته قد أُكِلَت، فيما نصدِّق أنّنا عشنا تحت جبروته سنوات طويلة من أعمارنا وأعمار أُمّهاتنا وآبائنا وأبنائنا. سنوات ضائعة، أو ما يشبه الضياع، ما يشبه أيّ شيء، غير ما نُسمِّيه العمر أو الحياة".